أســـر الرجـــال في الشعـــر العربـــي
من عصر الجاهلية إلى عصر بني أمية

إعداد

أ . د / كمال محمد محمد عبد الرحمن مخلوف
أستاذ مساعد بقسم الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بقنا

تمهيـــد

إن مـــن يـــنظر فـــي الشعر العربي القديم وخاصة شعر الأيام والحـــروب وكذلـــك الشعر المعلي من شأن الفعال والأمجاد سواء في ســـياق الثـــناء أم الافتخار ، أو الشعر المرزي بالنقائص والعيوب في سياق الهجو ، يجد معالجة لجانب أو آخر من أحوال الأسر والأسرى.

وقد رغبت في درس قدر من ذلك الشعر سواء كان في العصر الجاهـــلي أم عصر صدر الإسلام وبني أمية واستقرائه وسبر أغواره مـــن أجل الوقوف على جلية الأمر عن عدد من المسائل التي لها صلة وثيقـــة بالأسر كالنظرة العامة إلى الأسر عند العرب قديماً ، وكالنظرة إلى غيـــر القادرين على أ سر أعدائهم من ناحية أخرى .. وكذلك مدة عمـــق الإحســـاس بالمعانـــاة في شعر الأسرى ، ثم الوقوف على فك الأســـرى أو فدائهم ، وكيفية معاملة الأسرى و سفك دمائهم ، وكيف كانت النظرة العامة والخاصة لمرتكب تلك الممارسة في المعيار الخلقي والاجتماعي ؟ .

وكـــان هدفـــي من هذا البحث الاستضاءة فقط بالشعر من أجل تحديـــد معـــالم صـــور الأسر والأسرى وكثير من أحوالهم وماله بهم مساس .

المبحث الأول

أسر الرجال في الشعر العربي

من عصر الجاهلية إلي عصر بني أمية

نظرة العرب قديماً إلي الأسر :

مما لا ريب فيه أن المحارب يفرح بانتصاره على عدوه وجنيه ثمار هذا الانتصار ، ومن هذه الثمار أسر أكثر عدد من رجاله وقد عد ذلك أكثم بن صيفي وهو أشهر حكماء العرب قبل الإسلام ذلك أهنأ الظفر"[1]" لأن كثرتهم علامة على تفوق الأسر التام على عدوه ، وانتصاره عليه انتصاراً لا ريب فيه ولهذا حفل الشعر العربي القديم بغناء ما أنجزه أقوام منتجيه من مفاخر في هذا الاتجاه ، وبالثناء على من يأسر مناوئيه ويسبي نساءهم وزراريهم ، وبهجاء من لا يستطيع صد آسر وقد افتخر مرار بن سلامة العجلي بانتصار بني عجل على بني فزارة في يوم ذي قار إذ يقول :

أسرنا منهم تسعين كهلاً

نقودهم على وضح الطريق"[2]"

وينم الشعر ، كما سيتضح عن حرص خاص على أسر العظماء وذوي الشأن من الرجال من ملوك وسادة وقادة وفرسان لأن أسرهم كثيراً ما يجمع بين فضلين : كسب مالي عظيم ، لأن فداءهم يكون أغلى ثمناً من فداء السوقة ، كما سنبين بعد ، وكسب معنوي متمثل في الصيت الحسن والشهرة العظيمة لتمكنه من تحقيق هذه المفخرة وإن أخطأه أحد الفضلين لم يخطئه الآخر .

---

(١) الكامل في التاريخ لعلى بن الأثير ج ١ / ٦٢٣ دار صادر بيروت طسنة ١٩٦٥ م ـ ١٣٨٥ هـ .
(٢) انظر معجم الشعراء لمحمد عمران بن المرزباني ص ٣٣٩ تحقيق عبد الستار فراج ـ مكتبة الباب الحلبي ١٩٦٠ القاهرة .

وإن ممـــا دعـــا الآســـرين إلى الإكثار من الفخر بأسر السادة وعـــلية القـــوم والفرسان أن التمكن من أسرهم مهمة أشق وأصعب وأكـــثر تحريـــراً من أسر غيرهم ، فالدنو منهم من الصعب والخطورة بمكـــان ، فمـــا بالك بقهرهم وأسرهم لما يتصفون به من منعه وقوة وبســـالة أو لمـــا يتوفر لهم عادة من حماية لا تتوفر لغيرهم ، فمن يغلبهم وينتصر عليهم جدير وحرى بأن يكون لمن سواهم أغلب .

وإن أول مـــا يتبادر إلى الذهن من تمجيد لهذا النوع من الأسر افـــتخار عمـــرو بـــن كلثوم ، ضمن فخره الكثير في قصيدته النونية الشـــهيرة بعودة قومه وأهله بالملوك مصدفين " مقيدين " بينما رضي أضـــداهم بالســـباء والغنائم ، ومنه أيضاً تباهي عتيبة بن الحارث بن شـــهاب بأسره بسطام بن قيس الشيباني وبأنه مكث لديه طوال أشهر القيـــظ " الحـــر " مكـــبلاً وسلاسل الحديد في يديه وساقيه لها رنين ، وكأنها تعزف له أنغاماً موسيقية شجية إذ يقول "١" :

أبـــلغ ســـراة بـــني شيبان مألكة

أنـــي أبـــات بعـــبد الله بســـطاما

قـــاظ الشـــربة فـــي قيد وسلسلة

صـــوت الحديـــد يغـــنيه إذا قاما

ولما أسر بنو كلب سيدي تغلب المشهورين كليباً وأخاه مهلهلاً وسادة من تغلبيين آخرين بعد معركة خاضوها مع تغلب انبري سيدهم زهيـــر بن جناب يفتخر بهذا الفعل العظيم وأخذ يتشفى من عدو قومه

---

(١) الكامل لابن الأثير ص ٦٠ ونقائض جريرو الفرزدق لأبي عبيدة بن المثني ١ : ٣١٥ وما بعدها تحقيق أيقان ط لندن برل سنة ١٤٠٨ هـ ١٩١٢ م . وفكرة وصف صلصلة أصفاد الأسير بأنها غناء وتهكما غير نادرة في الشعر الجاهلي فقد تحدث سلامة بن جندل عن أسره بأن الحديد يغنيه " أنظر ديوانه ص ٢٥٩ تحقيق فخر الدين قباوة حلب المكتبة العربية سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م وقد أستخدم جرير هذه الفكرة بعد ذلك قال " تغنى ابن ذي الجدين فينا سلاسله " انظر ديوان جرير بن عطية ص ٩٦٨ تحقيق نعمان أمين طه دار المعارف القاهرة ١٩٨٦ م .

وبعيـــرهم بأسر سادتهم وفرار مقاتليهم فلقد وجد مهلهلاً نفسه مكبلاً بالسلاسل يستنجد فلا ينجد ، بل يفر الجمع عنه ، ويتركونه يقاسي ذل الأسر كما يقاسي الجوع حتى إنه ليظل يشق حدج الحنظل ليأكل ما بها من بذر إذ يقول"[1]" :

إذا أســـــرنا مهـــــلهلاً وأخـــــاه

وابـــن عمرو في القد وابن شهاب

يـــوم يدعـــو مهـــلهل : يـــا لبكر

هـــا أهـــذي حفيظـــة الأنساب ؟!

لحقـــت أوائـــل خيلـــنا سرعانهم

حـــتى أســـرن على الحبى مهلهلاً

إنـــا مهـــلهل مـــا تطيش رماحنا

أيـــام تـــنقف فـــي يديك الحنظلا

ولـــت حماتك هاربين من الوغي

وبقيـــت فـــي حـــلق الحديد مكبلا

فلـــئن قهـــرت لقـــد أسرتك عنوة

ولـــئن قتـــلت لقد تكون مؤملاً "[2]"

وإن الفخر بأسر الملوك والسادة لكثير في شعر الجاهلية ومن ذلـــك على سبيل المثال افتخار رميض العنزي بأسر قومه عنزة حاتم الطـــائي ، والحـــارث بـــن ظـــالم المرى ، وكعب بن لأمامة الأيادي ،

---

(١) انظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٩ : ١٩ مصور عن طبعة دار الكتب القاهرة بأسم المعركة أيوم الحبى

(٢) المصدر السابق ص ١٩ ، سرعانهم : أوائلهم – سرعان الخيل : أوائلها . تنقف الحنظل : تشقه .

وأسماء بن خارجة الفزاري أو الهذيل بن هبيرة التغلبي"[1]" ، كما افتخر عياض بن مرثد العامري بأسر قومه بني عامر معبد بن زرارة في(يوم رحرحان الثاني)"[2]" .

وكافتخار عبادة بن مرثد بأسره الفارس الأشهر الذي أدرك الإسلام وأسلم " قيس بن عاصم المنقري " رضي الله عنه "[3]" وكما افتخر سلمه بن قرط بن سفيح بأسر تغلب فارساً يدعى الحطم في يوم جو عتيك "[4]" ، وكأفتخار الأفواه الأودى بأسر قومه سادة أعدائهم "[5]"، وكادعاء عامر بن الطفيل أن قومه أسروا سادة بني لجيم يول(غول)"[6]" ، وكتذكير مليح الهذلي أعداء قومه بانتصارهم عليهم ، وتمكنهم من أسر ملوكهم "[7]" .

كما افتخر أشرس بن بشامة النهشلي بأسر قومه ضبة مشول ابن الهذيل بن زفر الكلابي ثم إطلاق أسره مقابل مائة من الإبل "[8]" .

ومن يمعن النظر في شعر جرير يجد توظيفاً مكثفاً لفكرة " أسر السيد المطاع أو الرئيس ، أو الملك " هذه في خدمة الشاعر بقومه بني يربوع ، فدأبهم أسر الفرسان والملوك الجبارين وتقييدهم وتركهم يجرون الأصفاد والسلاسل التي لا يستطيعون نزعها ، ويتجرعون كؤوس الألم مما تلحقه بأيديهم وأرجلهم من كلوم ، فهم يسلبونهم تيجانهم ويردونهم من سكر السلطان إلى صحوة الصغار :

---

(١) الكامل ص ٦٢٣ ، والنقائض ص ٣١٥ .
(٢) الأغاني ١١ ـ ١٢٧ ـ ١٣٠ .
(٣) نفسه (١٤ ـ ٨٩) .
(٤) الأنوار ومحاسن الأشعار (١ : ١٩٢) لعلي بن محمد الشمشاطي ط ١٩٧٧ .
(٥) معجم البلدان لياقوت الحموي (٢ : ٤٢٨) دارة ، وديوان الاعفو الأودى ص ٢٣ صنعة عبد العزيز الميمني لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٣٧ م .
(٦) ديوان عامر بن الطفيل ص ٤٨ دار صادر بيروت ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ ص ٤٨ والتي بعدها .
(٧) شرح أشعار الهذليين للحسن السكري تحقيق عبد الستار فراج القاهرة ص ١٠٠٤ مكتبة دار العروبة سنة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م .
(٨) ديوان جرير ص ٦٢ تحقيق نعمان أمين طه دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٦ م .

مـــنا فـــوارس مـــنعج وفـــوارس

شـــدوا وثـــاق الحوفـــزان بـــأودا

فـــلرب جـــبار قصـــرنا عـــنوة

مـــلك يجـــر سلاســـلا وقيـــودا

وكـــنا إذا ســـرنا لحيـــي بأرضـــهم

تركـــناهم قتـــلى وفـــلا مشـــردا

ومكـــبلا فـــي القـــد ليـــس بـــنازع

لـــه مـــن مـــراس القد رجلاً ولا يدا

وإنـــــي لتبـــــتز فوارســـــي

إذا كـــل عجعاج من الخور عردا"[1]"

وأخـــذ جرير يعدد أسماء الأبطال والفرسان والسادة المشاهير الذين أسرهم قومه ، وهو قد يريد بقومه يربوعاً ، وربما أراد تميماً ، عـــلى أنها تجمع قرينه الفرزدق معه ، لكنه يشاء الاستئثار بأمجادها وفعالهـــا دونه ، وأن ينسل من معانيها ويرمي خصمه بها ، حتى إنه افـــتخر بأسر رجل مجاشعي من قوم الفرزدق لأحد الفرسان " الصمة الجشـــمى " إنـــه يذكـــر أسر بني يربوع في " يوم الغبيط " لهانئ بن قبيصـــة الشـــيباني الـــذي عـــض به قيد الحديد لدى قوم جرير طوال الصـــيف والـــربيع ، ولبســـطام من قيس الذي ظل يأكل الحديد والقد ساعديه وساقيه عاماً تماماً ولقابوس وحسان ابني المنذر " يوم طخفة " وليـــزيد ابـــن الصعق الذي أسرته يربوع " يوم ذي نجب " وللصمة الجشمى الذي أسره الحارث بن بيبة المجاشعي ، ويكرر الفخر بلا سأم

---

(١) ديوان جرير ص : ٨٥٠ تبتز : تستلب بزته وهي ما عليه من الحديد من درع ونحوه ، عجعاج : ضعيف وليس عنده إلا العجيج والصياح الخور : الجبناء . عرد : جبن انظر أبيات لجرير في هذا المعنى ص ٧٦٠ ، ٨٨٠ ، ٩٠٨ ، ٩٤٧ .

بأســـرهم الهذيـــل بـــن هبيرة التغلبي في"يوم ذي بهدي" وهو في هذا الـــتعداد يـــباهي الفـــرزدق والأخطل بسطوة قومه ، وتميزهم بالمنعة والإقـــدام ممـــا مكنهم الهيمنة على زعماء القبائل الأخرى وساداتها ، وإذاقتهم طعم العبودية وّالهوا والرسف في القيود إذ يقول :

دعـــا هـــانئ بكرا وقد عض هانئا
عربي الكبل فينا الصيف والمتربعا
وقـــابوس أعضضـــنا الحديد ابن
وحســـان إذ لا يدفع لذل ومدفعا"[1]"
حـــوت هاناءُ يوم الغبيطين خيلنا
وأدركن بسطاماً وهن شوارب "[2]"
وعفى ابن ذي الجدين حول بيوتنا
سلاســـله والقـــد حولا مجرماً"[3]"
ونحـــن صـــدعنا هامة ابن خويلد
عـــلى حيـــث تستسقيه أم الجوائم
ونحـــن صـــدعنا هامة ابن خويلد
كذلـــك نعصى بالسيوف الصوارم
ونحـــن ضـــربنا جار بيبة فانتهى
إلى خســـف محكـــوم له الضـــيم

---

(١) ديوان جرير ص ٩٠٨ وانظر في أسر بني يربوع لابني المنذر " والحق أن أحدهما ابن المنذر والآخر ابن النعمان " ، مثلا نهاية الأرب في فنون فوق الأدب ١٥ : ٤١٣ لأحمد بن عبد الوهاب النوير ط دار الكتب
(٢) ديوان جرير ص ٨١٠ ، شوازبب : ضوامر .
(٣) ديوان جرير ص ٧٥٦ ذو بهدي .
(٤) انظر شرح ديوان جرير لمحمد إسماعيل الصاوي ص ٥٥٦ المكتبة التجارية القاهرة سنة ١٩٥٣ م وابن خويلد : يزيد بن الصعق ، أم الجوائم الهامة ، ابن محرق : قاموس المنذر ، أسرة طارق اليربوعي ، جار بيبة الصمة الجشمي ، الحارث بن بيبة المجاشعي ، نعض بالسيوف : نضرب بها كضربنا بالعصا ، انظر ديوان جرير ص ٨٧٥ ، ٩٦٨ .

قـــادوا الهذيـــل بذي وهم رجعوا

يـــوم الغبيط ببشر وهو مغلول "[1]"

مـــاذا ذاكرت من الهذيل وقد شتا

فيـــنا الهذيل وفي شواه كبول "[2]"

عـــلى أن أســـر العدو وأن أسر العدو وإن لم يكونوا من علية القـــوم مفخرة ليس يكل الشعراء من الافتخار والمدح بها ، وذلك إنه كـــان فـــي سفك دمهم في الميدان خضد لشوكتهم وإيهان لركنهم ، أو استئصـــال لشأفتهم وتمكين للظافر في الأرض ، وتثبيت له ، ورد لكيد عدوه ، ففي الأسر ما بينا الإلماح إليه من شرف باذخ إذ يبرز سطوة المنتصـــر وسلطانه ، وظهوره على عدوه ، وفق مغنم جزل ربما رده من ذوي اليسار التام ، وأذهب عنه حال البؤس وضيق ذات اليد .

فـــلا عجـــب أن حفل الشعر بالمباهاة بالإكثار من أسر الأعداء وأن عـــد القـــدرة على الأسر إحدى أبرز النعوت الحسنى التي تضفي عـــلى الممدوح ، وعد العجز عن دحر العدو وإذاقته طعم الأسر يوصم بها المهجوون فخيل قوم الشاعر تغير على العدو في الصباح الباكر " تصبحهم " في الغالب ، لتفاجئهم أي تحقق عنصر المفاجأة كما نسميه فـــي الآن فـــتظل تصول وتجول في حبهم تجمع الأسرى وتحوى المال ومن ذلك قول عنترة بن شداد "[3]" :

---

(١) ديوان جرير ص ٩٦ وشرح ديوان جرير ص ٤٩٧ .

(٢) ديوان جرير ص ٩٦ وانظر أيضاً في الفخر الهذيل ص ٦٣ ، ٢٨٦ .

(٣) انظر ديوان عنترة ص ٣٣٢ تحقيق محمد سعيد مولولي المكتب الإسلامي دمشق ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

صـــبحناهم بالحـــنو خيـــلاً مغيـــرة

فمـــا برحت تحوى الأسارى وتسلب

أو يوصـــف الأعـــداد المغار عليهم بأنهم كانوا نهباً للمغيرين " قـــوم الشـــاعر : تقاسموه بينهم ، وجاؤوا بهم مربطين إلى المكايا ، تســـير بهـــم كيفمـــا شاءت ، لا يستطيعون حيلة ، بل كانوا مذعنين منقادين يحثون الخطى لمجاراتها وقيدهم المشدود شداً محكما يؤلمهم ، ونســـاؤهم يســـوقهن الـــرعاة والأجـــراء سوقاً فلا ينقطع عويلهن ونواحهن

كمـــا يقول بشر بن عليق الطائي يذكر مهجوه عدى بن الرقاع العاملي بما صننعته طئ بعالمة "[1]" :

أخذنـــاكم يـــوم المجـــر فكنـــتم

نهـــباً وســـبياً بينـــنا مســـتقماً

ورحـــتم بأعضـــاد المطايـــا جنابنا

تشـــكون مصـــحوباً من القد محكما

تســـوق عضـــاريط الركاب نساءكم

وقـــد غـــادروا مـــنهن نوحاً ومأتماً

ومـــن أساليب الشعراء القدامى حيث يتحدثون عن صنيع قومه بعدوهـــم ، أن يذكـــروا أنهم تركوهم أقساماً ثلاثة : صريع يتشحط في دمه ، وأسير بنوء بأغلاله إلى أن يفدي نفسه بماله أو يفتديه قومه ،

---

(١) انظر شعر طئ وأخبارها لوفاء فهمي السندوبي ج ٢ : ٣٥٧ دار العلوم الرياض ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م . ج ١ ص ٣٥٧ والتي بعدها ، رحتم بأعضاء المطايا : مشيتم إلى جانبها عن يمينها وشمالها . العد : سير من جلد : عضاريط الركاب : العضاريد الأجزاء والتبارع وقوهم . عالمة : أسم مكان .

وممنون عليه مقر بفضل آسريه ، أو أن الأعداد باتوا بين قتيل وشريد ومكتوف ومن ذلك قول عوف بن عطية القيمى "[1]" :

فيهـــم ثلاثـــة أفـــرقاء : مســـابح

فـــي الرمح يعثر في النجيع الأحمر

ومكـــبل يفـــدى بوافـــر مالـــه

إن كـــان صـــاحب هجمـــة أو أبصر

أو بيـــن عـــنون عـــليه وقومـــه

إن كـــان شـــاكرها وإن لـــم يشـــكر

فـــلم تـــر مـــنهم غيـــر كاب لوجهه

وآخـــر مغـــلول وآخـــر يهـــرب

وقد عد الراغب الأصفهاني المتوفي سنة ٥٠٢ هـــذا التقسيم للأعداء المهزومين مما ينبغي أن يسير عليه الناعت لحال المنتصرين في الحرب وما فعلوه بعدوهم ، قال "[2]"(تقول خلف الجموع بين صريع ومقتول وأسير مكبول ، ومستأمن مقبول ، وصاروا بين قتيل مر مل ، وأسير مكبل ، ونازع مزهق ، وعان موثق .. اقتسموا بين قتلى حتى اجـــرى منهم جداول ، وأسرى ملئ منهم الكبول والحبائل .. فقسمهم بين قتل محقهم ، وأسر أوثقهم ، واستئمان استرقهم) .

ولأن حديث الشعر عن الأسر ربما صدر ، والسيوف تنطف من دمـــاء الأعـــداء ، فـــلا غـــرابة في اتسامه بروح التشفي من الخصم المهزوم ، والتلذذ بمأساته ، وبغياب عاطفة الإشفاق على الخاسر عنه

---

(٢) انظر موسوعة الشعر ج ٤ ص ٤٤ وما بعدها لمطاع صفدي وإيليا حاوى بيروت شركة خلط ١٩٧٤ م
هجمة : الهجمة القطعة من الإبل ، أبصر : الأبصر كساء يحمل بحمل وفيه الحشيش ، وربما كان المقصود في البيت الشعب وهو من معاني الأبصر " أنظر اللسان مادة أ ص ر "
(١) مجمع البلاغة للحسين بن مفضل الأصفهاني ص ٤٦١ تحقيق عمر الساريسي مكتبة الأقصى ط سنة ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦ .

، كأن يبدي الشاعر ابتهاجه برؤية بعض المقاتلين من عدو قومه في ساحة القتال قتلى " كأنهم أعجاز نخل خاوية ، والطير مقتلع أعينهم ومشاهدة البعض الآخر يقادون بالسلاسل ، مضطربي المشية متمايلين ، وقد ساءت حالهم ، وأسودت وجوههم ، فكأنهم جمال جرب قد طليت بقطران ليذهب جربها ومن ذلك قول مالك بن نويرة "[1]" :

فأقررت عيني حين ظلوا كأنهم

ببطن الإباد خشب أثل منضد

صريح عليه الطير تنتح عينه

وآخر مكبول يميل مقيد

ويقول النعمان بن زرعة التيمي "[2]" :

فأبنا بالنهاب وبالسبايا

وبالأسرى تقود في الغلال

يمشون في حلق الحديد كأنهم

جرب الجمال طلين بالقطران "[3]"

وقد لا يكفي قرة بن عاصم التحدث عن تمكين قومه من أسر عدوهم ، حتى يخفي بعضهم بأسمائهم ويتشفى بما قاسوه في الأسر من قود وتصفيد وإذلال فيقول :

وحمران أدنته إلينا رماحنا

ونازع غلا في ذراعيه أسمرا

---

(١) انظر الأختيارين للأخفش الصغير تحقيق فخر الدين قباوة مجمع اللغة العربية دمشق ص ٤٥ / ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م الآيد موضع ، انظر قصائد جاهلية نادرة ص ١٥١ ليحي الجبوري ط مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

(٢) انظر الأنوار ومحاسن الأشعار ص ١٧٦ .

(٣) شعراء النصرانية لويس شيخو ص ٨١٠ مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت سنة ١٩٢٦ م .

وجشـــامة الذهـــلي قدنـــاه عـــنوة

إلى الحـــي مصفود اليدين مكفراً"[1]"

وربمـــا نـــتحدث عـــن حشد الأسرى وجمعهم جماعات وقوفاً لتصـــفيدهم ، وهـــم عـــلى هذا الحال ، لإشعارهم بالعبودية وبسطوة أسرهم كما يقول عامر بن الطفيل "[2]"

قتلـــنا مـــنهم مائـــة بشـــيخ

وصـــفد نـــاهم عصـــبا قيامـــا

وعن بدو الذبلة والخضوع على الأسرى أمام سلطان الآسرين يقول أوس بن مغراء "[3]" :

وفاضـــت مـــنهم فيـــنا أســـارى

لديـــــنا مـــــنهم متخشـــــعينا

والواقـــع أن أســـر الأعداء مدعاة للفخر ، كما إنه مدحة تكثر نسبتها للممدوحين والمرثيين وقومه شرف بقدر ما فيه من عار على الأســـير وقومـــه ، على أن الأسير ربما عاد على الآسر بالخزى حين يـــتعدى الخد فيأتمر من ليس له أن يأسره كالحليف والجار ، وإن كان حـــبل الحـــلف أو الجوار بين قومي الرجلين بطبيعة الحال ، فإن ذلك معـــدود نقضاً للجوار شائناً ، وخيساً بالعهد وغدراً مخزياً جالباً لمذمة الخـــلق شعراء وغير شعراء وقد استحق عتيبة بن الحارث بن شهاب فارس تميم قبل الإسلام الملقب بصياد الفوارس مثل هذه المذمة لأسرة أنس بن مرة السلمى ، وكان بين قومه وتميم جوار فأتبرى له ابن أخ لأنس هو الصحابي الفارسي عباس بن مرداس السلمى رضي الله عنه

(١) ديوتان جرير ص ١٢٤ ، ونهاية الأرب للنويري ص ٣٨٤ مكفر من كفر في السلاح والحديد إذا دخل فيه

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ص ١١٢ دار صادر بيروت ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م .

(٣) أنظر الأغاني ١٦ : ٣٣٨ .

وقيل : إن من أنبرى له أنس بن عباس فاستشنع غدر عتيبة الذي جلل قومه حنظله عار الخيانة والفعل القبيح ، ونعته بأنه دنس نفسه في آخر عمره بأسره أنس ، وتهكم بقوم الآسر ورهط المرء في عرف الجاهلية ، يرون وزره ، وطلب منهم التنحي بعيداً عن مقام الأعراب النبلاء فليسوا بمعدودين منهم ، وأن يغطوا في نومهم ، فما هم لسوى النوم بفاعلين فعلاً جميلاً : فيقول "[1]"

أبلغ سراة بني شهاب كلها
وذوي المثالة من بني عتاب
كثر الضجاج وما منيت بغادر
كعتيبة بن الحارث بن شهاب
جللت حنظلة المخانة والخنا
ودنست آخر هذه الأحقاب
وأسرتم أنسا فما حاولتم
بإسارجاركم بني الميقاب
فخوا بأطراف الأنوف وأمهلوا
عنكم قوادم صرمة الأعراب

بل إن عتيبة أضحى مضرب مثل في الغدر "[2]" .

---

(١) ديوان عباس بن مرداس السلمى ص ٣٦ وما بعدها تحقيق يحيى الجبوري وزارة الثقافة بغداد ١٣٨٨ هـ - ١٩٨٦ م فخوا : الفخس أن ينام الرجل وينفخ في نومه ، الميقاب : الواسعة الفرج .

(٢) انظر :مجمع الأمثال للميداني لأحمد بن محمد الميداني ٢ : ٦٦ ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد مطبعة السنة المحمدية القاهرة ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م وانظر المستقصى لمحمود بن عمر الزمخشري ١ : ٧٦ دائرة المعارفة .

المبحث الثاني

الذم بالوقوع في الأسر

إن الوقوع في الأسر ، كما أشرنا قريباً لمما يعاب به ، لأنه علامة أو إشارة إلى الوهن أو الجبن ، ويبقى الأثر المعنوي السلبي لوقوع الرجل أسيراً زمناً طويلاً بعد فك أسره ، فعقيل بن علفة " المتوفي نحو سنة ١٠٠ هـ " مثلاً استنكف أن ينكح ابنة والى المدينة عثمان بن حيان المتوفي سنة ١٥٠ هـ في عهد الوليد بن عبد الملك ، لأنه قد مسه أو مس أباه أسر "[1]" على أنه يحسن الاستدراك بأن الأحرى ألا يبلغ الأمر هذه الغاية في غالب الأحوال ، فما الناس كلهم كعقيل في التنزوع إلى التشديد المفرط في توخي الأصهار ، وماله مساس بالحرم ، ولما كان يمكنه من عجب بالنفس وعنجهية أعرابية . وقد بلغ من تعاليه على عثمان هذا أن قال له : لما خطب إليه ابنته : " أنا فتى أصلحك الله ؟ " فأعاد عليه الأمير القول ، لظنه أن سمعه خانه ، فرد بما رد به أول مرة ، فوبخه وأخرجه من مجلسه "[2]" .

كما اعتاد الشعراء على تعير خصومهم بما جرى لأقوامهم من أسر فعير جرير مجاشعاً بأسر بني جعفر بن كلاب من بني عامر سيدهم معبد بن زرارة يوم " رحرجان " ووصفهم بالجبن واتهمهم بأنهم أسلموه وتخلوا عنه ، كما عيرهم باضطرارهم إلى النزول عن حكم أسيدة أم مالك ذي الرقيبة الذي أسر في يوم " شعب جبلة " سيدهم الآخر الذائع الصيت حاجب بن زرارة أخا معبد ، وإعطائها ما

---

(١) انظر سمط اللآلي لأبي عبيد البكري ١ : ١٨٠ تحقيق عبد العزيز الميمني لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٠ .

طلبت من فداء وعرض بهم قائلاً : " لسنا نحن الذين أعطينا أسيدة ما حكمت به لأسير قد غل في الأصفاد " ؟؟؟! .

وقد كرر تعييرهم بإسلامهم سيديهم هذين ، وعدم دفعهم عنهما فوقعا في الأسر ، وذاقا أوجاع الأغلال والسلاسل ::

وعـردتم عـن جعفـر يـوم معبد

فأسـنم والقـلحاء عـان أسرها "[1]"

ومـا نحـن أعطيـنا أسـيد حكمها

لعضـت فـي الحديـد سلاسـله "[2]"

وأسـلمتم لا بـني أسـيدة حاجـبا

ولاقى قيـط حـتفه فـتفطرا

وأسـلمت الفـلجاء لـلقوم معـبداً

يجـاذب محموشـا من القد أسمرا"[3]"

وكـبل حـاجب بشـام حـولا

فحكـم ذا الـرقية وهـو عـاني "[4]"

وعـاج عليهم عوجة أخرى من عوجاته العناف وغلا في عيبهم بكثرة أن وقـوع رجالهم في الأسر، فتحداهم أن يذكروا يوما واحداً من أيام العـرب لـم يؤسروا فيه فيقرنوا بالحبال كما تقرن الأبل ، وأخذ يعدد الأيـام الـتي أسر منهم فيها رجال ، كيوم " الصفا " حيث أسرهم بنو عامر ، كما أسرهم " اللهازم " في يوم آخر ، ورماهم بالخور والضعف وعـدم الحفـاظ عـند الـلقاء والتخلي عن أخوتهم للعدو ويوثقونهم بـالأغلال ويذيقونهم هوان الأسر وخص بالذكر من أولئك الإخوة معبد

---

(١) ديوان جرير ص ٨٨١ ، الفلجاء مؤنث " الأفلج " وهو من بأسنانه " فلج " وهو صفرة تعلو الأسنان .
(٢) نفسه ص ٩٧٠ ، انظر خبر أسر حاجب في نهاية الأرب ص ٣٥٢ .
(٣) نفسه ص ٤٨٥ مخموسا : المخموس : الحبل المفتول على خمس قوى .
(٤) نفسه ص ٥٦٩ ، ونهاية الأرب ص ٣٥٣ .

بـــن زرارة مرة أخرى ورجلاً يدعى " مزادا " وزعم أن هذا شأنهم مع كل من يقع منهم في الأسر ونعتهم ووصفهم بهوان الجانب فلا يحمون جـــارا كما يفعل ولا يجيرونه كما يفعل القوم الأعزة المرهوبو الجانب فجارهم ذليل غير ممنع على من يؤذيه :

وفـــي أي يـــوم فاضـــح لم تقرفوا

أســـارى كـــتقرين البكار المقاحم ؟

ويـــوم الصـــفا كنـــتم عـــبيداً لعامر

وبالحـــزن أصـــبحتم عـــبيد اللهازم

تركـــتم أبـــا القعقاع في الغل معبدا

وأي أخ لـــم تســـلموا للأداهـــم ؟

تركـــتم مـــزادا عـــند عـــوف يقوده

بذمـــة مخذوف على الدين غارم "١"

وفـــي أي يـــوم لـــم تساقوا غنيمة

وجـــاركم فقـــع يحـــالف قرقـــرا "٢"

وهـــم حسب زعمه ، من ناحية أخرى ، على كثرة أسر سواهم إياهم ، أجبن وأضعف من أن يتمكنوا ، ولو مرّة واحدة من أسر أحد .

إنـــا لنعـــلم مـــا غـــدا المجاشـــع

وفـــد ، ومـــا ملكوا وثاق أسير "٣"

---

(١) ديوان جرير ص ١٠٠٦ ، الأداهم : القيود .

(٢) نفسه ص ٤٧٨ ، ويضرب المثل في الذله بالفقع وهو ضرب من الكمأة في القاع فيقال : أذل من فقع بقرة قره " و" أذل من فقه بقاع

(٣) نفسه ص ٨٥٧ .

المبحث الثالث

معاملة الأسرى

إن الأسير كما يصوره شعرنا العربي مقيداً دائما بضرب من قيود وأصفاد ، فبقيد من جلد تارة ، وبحبل أو سلسلة من حديد تارة أخرى ، وتارة بهذه وتلك معاً وممن أشار إلى استخدام القيد والسلسلة معا عتيبة بن شهاب في وصل أسير الفارس بسطام بن قيس في بيته السابق كما ذكرنا وهو

قاظ الشربة في قيد وسلسلة

صوت الحديد يغنيه إذا قاما

فالتصفيد مرتبط بالأسر وملازم للأسير ، وهناك كثير من الآسرين قد يتجاوزون القصد في شد وثاق أسراهم خوفاً من فرارهم أو لقسوة قلوبهم . وربما ترك الآسر أسيره مدة ينوء بأغلاله الثقال وعلى سبيل المثال قد مكث قيسبة السكوني ثلاث سنوات مغلولاً .

وليس غريباً أن يقيد الأسير لئلا يفر فتصفد وقدماه ، أو توثق يداه ، أو يكتف أمداً قد يطول وقد يقصر لأنه في تلك الفترة الزمنية لم تكن هناك معتقلات مبنية كعصرنا هذا يحتجز فيها الأسرى دون تعريضهم لأذى التقييد وإن مما يشاهد ويدرك أن شعر المباهين بأسر عدوهم يعزف على الوتر الذي عزف عليه عمرو بن كلثوم في بيته المشهور الذي افتخر فيه بأسر قومه الملوك الصيد وتصفيدهم ، فلم يك وصفهم لحال الأسر للتألم مما حل به ، أو الحدب عليه ، أو تصوير معاناته راثياً له ، عاطفاً عليه بل كان وصفاً غايته إبراز علو يد الشاعر وقومه ، وتمكنهم من إخضاع خصمهم وخضد وشوكته ،

برغم قوته وجبروته وسطوته ومن ذلك على سبيل المثال قول مريض العنزى وهو يفتخر بأسر عنزة قبيلته حتما"[1] .

ونحـــن أســـرنا حاتمـــاً وابن ظالم

فكـــل ثـــوى فـــي قيدنا وهو يخشع

وكما يقول الأشوس في ابن الهذيل حين أسرته ضبة ثم أطلقته مقابل مائة من الأبل:

نحـــن رددنـــا ابـــن الهذيـــل لقومه

بـــه أثـــر الأغـــلول تـــدمى مناكبه

ومن ذلك أيضاً قول قرة بن عاصم وقد ذكره :

وجـــثامة الذهـــلي قدنـــاه عـــنوة

إلى الحـــي مصـــفود اليديـــن مكفرا

ويقول جرير أيضاً"[2]"

الأرب جـــبار ســـلبناه تاجـــه

فأصـــبح فيـــنا عانيـــا يشتكي الكبلا

وقـــد يكون وصفاً يلتذ فيه الواصف بالحديث عن تضرع أسير قومـــه فـــي القيد ، وعما قد يكون أصابه من كلام ، وعن مكثه فيهم زمـــناً طويـــلاً يقاسي ألام الأغلال ، وربما كان للمنافسة بين الشاعر وأقرانه من الشعراء من قوم الأسير أثر في هذا التمتع والتلذذ بمعاناة الأسير إذ يرغب أن يؤلمهم ويغيظهم بذلك :

---

(١) الكامل ١ : ٦٠٦ في التاريخ لابن الأثير دار صدر بيروت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .
(٢) انظر ديوان جرير ص ٧٦٠ .

ومن ذلك قول جرير :

ضـــغا فـــي القـــد آدر تغلـــبى

ضـــبيح الجـــلد مـــن أثـــر الكلوم"[1]"

كما يقول أيضاً "[2]" :

مـــا ذا ذكـــرت من الهذيل وقد شتا

فيـــنا الهذيـــل وفـــي شـــواه كبول

وإن الفخـــر والمدح بقيد الأسرى وتصديفهم لكثير على ألسنة الشعراء "[3]" .

وهو يظل الأسير أمداً طويلاً ماكثاً في القوم الآسرين ، ويبطئ أهلـــه في القدوم إليه وفدائه حتى يتضاءل أمله في الخلاص من ربقة الأســـر ويستيئس من نيل الحرية أنه يرى الأبواب مقفلة في وجهه ، بينما لا يزداد غله إلا إيثاقاً يؤدي إلى جفاف أنامله وتفقعها ومن ذلك قول حسان بن ثابت:

وراث عـــليه الوافـــدون فمـــا يرى

عـــلى الـــناس منهم ذا حفاظ يطالعه

وســـد عـــليه كـــل بـــاب يـــريده

وزيـــد وثاقـــاً فاقفعـــلت أصـــابعه

أما إذا نظرنا إلى الشعراء الذين ابتلوا بمنحة الأسر ، واكتووا بـــناره فـــنجدهم قد وصفوا ما مر بهم من عناء نفسي وجسدي مبرح ومـــن أقدر من شاعر عان معان على نعت ما عناه ؟! وقد صور أحد هـــؤلاء الشـــعراء قســـوة ما لاقى عند آسريه ناعتاً حاله بأن الإسار

---

(١) شرح ديوان جرير ص ٤٩٧ ضغا : استنجد متألماً ، والضغاء : صوت الذليل المقهور ، ضبيح الجلد : محترق الجلد من الجراح .

(٢) ديوان جرير ص ٩٦ .

(٣) انظر ديوان الفرزدق ٢ : ٨٩ ، ١٦٢ وديوان جرير ص ٧٤٥ ، ٧٦٥ .

والقتل " اكلاه أكلاً "[1]" كما استطعف أسير آخر يدعى عاصم بن الهلالي آسره خالد بن عبد القسري استعطافاً يلين الصخر ، إذا ذكر أن الدم ينزف ثرا من ساقيه من شدة إحكام أصفاده ، وقد مكث طويلاً منتظراً فك أسره بدون جدوى .

فأنقذ يا فداك أبي وأمي

أسيراً طال ما انتظر الفكاكا

بمرو الشاهجان إذا تروت

حديدة ساقه بدم دعاكا"[2]"

وكما نعت أعشى همدان حاله حين وقع أسيرا في بلاد الديلم وكان في البعوث التي سيرها الحجاج بن يوسف الثقفي إليها ، وكيف بات رهينة لدى العدو يرسف في الأصفاد آناء الليل وأطراف النهار ، وقد أثرت في ساقيه وساعديه إذ لم تكن قد اعتادتها ، فهزل وعريت أصباعه ويداه من اللحم بعد أن كان قبل أن يؤسر سعيداً رخى البال شديد الإباء للضيم : فيقول"[3]" :

أصبحت رهناً للعداة مكبلاً

أمسى وأصبح في الأداهم أرسف

واستنكرت ساقي الوثاق وساعدى

وأنا امرؤ بادي الأشاجع أعجف

ولقد أراني قبل ذلك ناعما

جذلان آبى أن أضام وآنف

---

(١) انظر الأغاني ١٧ : ٣٩٤ .

(٢) انظر الوحشيات لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي ص ١٠٣ تحقيق عبد العزيز الميمني ط دار المعارف القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

(٣) انظر ديوان اعشى همدان وأخباره ص ١٣٩ تحقيق حسن أبي ياسين ط دار العلوم الرياض ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

ولم يقتصر إساءة معاملة الأسير على ربطه بالقيود والسلاسل ، وعلى ما لذلك من أثر محزن ووقع أليم على نفسه وروحه ، بل اتخذت مظاهر مختلفة تتراوح بين ازدرائه والهزء به ، كضحك الشيخة العبشمة من عبد يغوث الحارثي وإيذائه وإذلاله بالقول والفعل وضربه وتعذيبه وإيقاع أقسى العقوبة به كسفك دمه أو اختيار أشنع وسيلة لإزهاق روحه وهي حرقه .

ومن إساءة معاملة الأسير حبسه في مكان ضيق كحفرة أو سرداب أو بئر كسجن معبد بن زرارة الذي وصفه عوف التيمي بأنه " حفرة عميق قعرها "[1] .

ومن هذه الإساءة أيضاً استرقاقه وعدم قبول فداء له كما صنع بنو خذاعة الهذليون بأسير لهم يدعى ربيعا إذ باعوه بمكة . وكمن يدلي بعذر أقبح من ذنب انبرى شاعرهم يمجد صنيعهم ويشمت بالأسير المستعبد البائس :

فإنك قد شريت فعدت عبداً

بمكة حيث ترتم العظاما"[2]

وكم من أسير لقى ما " يشيب ناصية الصبي ويهرم " على يد من أسره ونذكر على سبيل المثال بني محارب الذين أسرهم ملك الحيرة الأسود بن المنذر فعذبهم عذاباً شديداً يفكرنا به ما نسمعه من وقت عما يمارسه بعض الوحوش اللابسة ثياب أناسي في أجهزة الأمن السرية الآن مع ضحاياها في بلاد كثيرة فقد أحمى الحدارة وقال

---

(١) انظر الأغاني ١١ : ١٣ .

(٢) انظر شرح أشعار الهذليين ص ٣٩٤ وما بعدها : ترتم : تأكل الدم .

لهـــم : " إني أحذيكم نعالاً ، فأمشاهم على الصفا المحمي فتساقط لحم أقدامهم "[1].

وقـــد وصل الحد إلى أكثر من هذا حتى إن شاعراً لخمياً وهو عـــباس بـــن يزيد الكندي يجمع بهذه الممارسة الهمجية وعير محارباً بتلقيهم هذا النكال الأليم .

عـــلى عهـــد كســـرى نعلتكم ملوكنا

ضـــعفاً مـــن أضاح حامياً يتلهب "[2]"

وهكـــذا يغيـــر الهوى المعايير ويقلبها ويرد الشر والعار خيراً ومفخرة .

ولقـــد كان قتل الأسرى عادياً وممارساً قبل الإسلام فلقد قتلت تيـــم عبد يغوث الحارثي لما أسرته يوم الكلاب الثاني ، لأخذ الثأر من قومه بني الحارث بن كعب لقتلهم في اليوم نفسه فارسهم النعمان بن جساس "[3]"

كمـــا قتل بنو سهم الهذليون أسيرهم عمرو بن عاصية البهزي ولـــم يلـــبوا طلبه حتى شربة ماء طلبها قبل قتله ، بل آلوا ألا يذوق الماء ، فقالت أخته مشيرة إلى ذلك :

هـــلا ســـقيتم بني سهم أسيركم ؟!

أهلي فداؤك من مستورد صادي"[4]"

---

(١) الأغتي ١١ : ١١٠ ونشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب لابن سعيد الأندلسي " علي بن موسى ص ٥٦٠ تحقيق نصرت عبد الرحمن مكتبة الأقصى عمان ط سنة ١٩٨٢ م .

(٢) أنظر الاغاني ١١ :١٣ أضاخ : موضع فيه قرية قديمة أحيبيت حديثاً تقع في جنوب غربي القصيم .

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١ : ٦٢٤ .

(٤) انظر شرح أشعار الهذليين ص ٨٦٦ .

بل إن المقاييس انعكست لدى بعض شعراء الجاهلية إنعكاسها لـــدى قـــوم لوط حين طلبوا إخراج لوط وآله من قريتهم لأنهم " أناس يتطهرون " فافتخروا حتى بقتل أهلهم أسراهم "[1]" .

ومما هو أدهى وأغرب أنه ربما يقتل الأسير ثم يمثل به ، ولا ســيما إن كان قد أوغر صدور آسريه بفعل فعله بهم قبل أسره ، فلما أســرت قيس بن العيزارة الهذلي أقترح بعضهم ، بعد أن أجمعوا على قتله ، قطع لسانه .

غــداة تــنادوا ثــم قــامو وأجمعوا

بقتــلي ســلكي ليــس فيهــا تنازع

وقــد أمــرت بــي ربــتي أم جندب

لأقــتل لا يســمع بذلــك ســامع

تقــول اقتــلوا قيساً ، وحزوا لسانه

بحســبهم أن يقطع الرأس قاطع "[2]"

وأفظــع الجرائم في هذا الشأن ما فعله المنذر بن امرئ القيس مــن قــتل عــدد كــبير من قبيلة بكر بن وائل على قنة جبل ، فبلغت دمــاؤهم ســفحه ، كما أمر أن تحرق السبايا البكريات ، لكن حضور رجــل قيســي مأمون من بطانة هذه الطاغية حال دون ذلك ، إذ شفع لديه فيهن فشفعه وأطلقهن "[3]".

وقــد افــتخر الأعشــى بشــفاعة ابــن كلثوم لأنه وائلي مثله والأعشى بكري وعمرو تغلبي .

---

(١) الأغاني (٢٤ : ٣٩) " قتلنا منهم مائتين صبراً "

(٢) شرح أشعار الهذليين ص ٥٨٩ ــ ٥٩١ ، سلكي : أي قضية سلكى أي متفق عليها .

(٣) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ص ٥٢٥ ، وقيل فاعل ذل هو عمرو بن هند ، انظر الكامل ص ٥٢٥

ومـــنا الـــذي أعطـــاه الجمـــع ربة

عـــلى فاقـــة وللمـــلوك هياتهـــا

ســـبايا بـــني شـــيبان يـــوم أوارة

عـــلى النار إذ تجـــلّى لـــه فتياتها"[1]"

وكمـــا أن (الحيـــة لا تلد إلا حية) فقد صنع ابنه عمرو نحو صـــنيعه فأحرق مائة رجل من بني تميم ، وذلك سمى محرقاً "[2]" وكان الحارث بن عمرو ، من آل جفنة ، أول من ابتدع هذه العقوبة الشنعاء ، وكان أيضاً يدعى بالمحرق ، وكذلك امرؤ القيس بن عمرو اللخمي ، أي إن إمـــارة المـــناذرة مارست أسلوب البطش الوحشي والقمع في تعامـــلها مع القبائل العربية "[3]" ، حاذية في ذلك حذو غيرها من الأمم القديمـــة كالـــرومان والعـــبرانيين الذين كانوا ينزلون عقوبة الحرق بالمحاربين "[4]" . وإذا كان المناذرة قد غلو غلواً فاحشاً في الإنتقام من مناوئيهم ، ومعاقبة أسراهم وهم في حال لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعـــاً ، فـــإن الأسرى كثيراً ما لقوا في الجاهلية معاملة غير حسنى ، وإن لم تبلغ مبلغ هذه المعاملة الوحشية .

كما صورت واقع الحال ، الأخبار والأشعار التي عرضناها آنفا ، تـــلك القسوة التي هي ثمرة إحن دفينة وتراث قديمة ذات ضاربة في أعماق النفوس .

ومن ذا الذي لا يتوقع من مجتمع قبلي ركيزته الحمية الجاهلية للقبيـــلة ممارسات همجية محملة بالتشفي ، تشعلها الأحقاد والضغائن

---

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ص ٥٢٥ والأنوار ص ٢٢٤ والتي تليها .
(٢) الكامل ٥٥٥ ، ومجمع الأمثال للميداني (١ : ٩) .
(٣)
(٤) أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على (٥ : ٤٦٧) دار العلم للملايين بيروت طبعة سنة ١٩٨٠ م .

والـــنزعات الانـــتقامية الـــتي تلقي في الثأر ما يطفئ ضرام نار الغيظ المشبوبة في الأحشاء ؟ .

لكن برغم ما شاهدناه من معاملة قاسية للأسرى فإن الغالب أن الأســـرى كانوا يعاملون معاملة غير سيئة من آسريهم ، لكن المعاملة الســـيئة هي التي يرد لها ذكر على ألسنة الشعراء وذلك لما فيها من غرابة خرق للمألوف ، وهناك ما يباهي بإحسان قومه معاملة أسراهم ، ويعيـــر عدوه بالإساءة إلى من يأسروهم ومن هؤلاء أدهم بن حازم الضـــبي الذي افتخر بأنه وقومه لا يسلبون مال أسراهم ، مثلما صنع العامريون ، وأنهم لا يمنعونهم من الأكل والشرب لأن ذلك من أقبح ما يوجب الذم ، كما إن إطعام الأسير من أحسن وأفضل ما يجلب الشكر والثناء ويؤكد أنهم جميعاً ينهجون .

هـــذا الـــنهج الـــذي أوصاهم بالسير عليه جدهم ، وما كانوا يخالفون وصيته سواء في حال عسرهم أم يسرهم "[1]"

فمـــا نســـلب الأســـرى كما قد فعلتم

ولا نمنع الأسرى من الأكل والشرب

وليـــس ثيـــاب المـــوت عـــار وذلة

ومـــنع الأسير الأكل من أقبح السب

بذلـــك أوصـــانا أبونـــا ولـــم نكـــن

لنترك ما وصاه في الخصب والجدب

كما أن الشعراء الذين ذاقوا طعم الأسر قليلاً ما وصفوا معاملة وســـطا لا هي بالحسنة ولا السيئة لقوها على أيدي آسريهم ، على أن مـــثل تـــلك المعامـــلة هي التي تغلب على الظن أنها أكثر شيوعاً من

(١) انظر الحماسة البصرية على بن أبي الفرج (١ : ٦٠) تحقيق مختار الدين الدين أحمد دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ط سنة ١٩٦٤ .

سواها ، وما ذلك إلا لأن عدم إساءة معاملة الأسرى هو الأمر المعتاد والمألوف الذي لا يستوجب ذكراً .

إن العواطف والانفعالات الجياشة هي التي ترفض الانحباس ولا بد للمصدور أن ينفث لينفس عما يعتلج في صدره من الأسى والحزن والألم فتتلقف الأسماع ما يتفوه به وترتده الأفواه ، وإن كان هؤلاء المضطهدون البائسون هم قلة نادرة .

ومن وجهة أخرى يجد بعض الآسرين في الحديث عن تضييقهم على أسراهم ما يشفي غليلهم ويشرح صدورهم لأنهم ربما كادوا يصرعون في العراك الوحشي مع أولئك الأسرى وأنصارهم ومن هؤلاء على سبيل المثال زيد الخيل فعلى الرغم مما هو عليه من خلق كريم فقد تكلم على غير استحياء عما فعله بالحارث بن ظلام المري دون أن يشفع لظالم كونه ندا له في السؤدد والجاه ، فقد تركه يسير راجلاً وزيد راكب ، وقد كتف وربط إلى ناقة تسرع به الخطى بين الإبل ، فلا يملك إلا أن يسرع سعياً تسرع به حثيثاً لئلا تنأى عنه فيسقط ، فتنجره جراً قد يودي به وهو على هذه الحال يستمر يستجدي زيداً ومن معه أن يقبلوا فداءه ، ويمنوا عليه ، ولا يأبى على أنه سيد ، أن يجزوا ناصيته .

وإن زيد الخيل لا يجد حرجاً في التمدح بهذه المعاملة القاسية لأسير غير ذي حول أو قوة ، بل أخذ يتباهى بأنه كان يمعن في تروعه وتجريعه كؤوس الذل والمهانة بأن ينخس مؤخرته برمحه بين وقت وآخر حتى انشقت ويقول "[1]" :

---

(١) انظر الأغاني (١٧ : ٢٦١) جنيباً : منقاداً طائعاً ، النواجي جمع الناجية وهي الناقة السريعة الرواسم ، الرواسم كالنواجي ، المتضاجم : المعوج .

وســقنا نســاء الحــي مرة بالقنا

وبــالخيل تــردى قد حوينا ابن ظالم

جنيــباً لأعضــاد الــنواجي يقدنــه

عــلى تعــب بين النواجي الرواسم

يقــول : أقبلوا مني الفداء وأنعموا

عــلى ، وجــزوني مكــان القوادم

وقــد مــس حد الرمح قوارة استه

فصــارت كشــدق الأعلم المتضاجم

وإن ممــا ســلف حــول معامــلة الأسرى لا ينبغي أن يوحي باستحســان عــام لــدى العرب لها ، فقد كان كرام الناس يعدون قتل الأســير افــتراقاً معيباً مالم يك قاتلاً أو ذا جريرة كبرى استحق عليها إهدار دمه ، ولقد بلغ من سوء مغبة قتل الأسير أن عد عاتقاً في سبيل الطموح إلى المجد في نظر شاعر جاهلي حيث جعل في كلمة له ، هذا الأمــر مقروناً به الاستهانة بسيابا العرب وخصلتين أخريين مما يحول بيــن عباس بن مرداس ، وبلوغ منزلة سيد سلمى آخر يسمى عباس ابن أنس "[1]" .

وقــد أثار هذا الإتهام حفيظة عباس المتهم فكان سبباً في بدء مهاجاة بينة وبين ذلك المشاعر "[2]" .

وربمــا تحوشيت وفاة الأسير في الأسر مخافة المذمة لظن الناس أنه مــات مــن شــدة ما لقى من العذاب والاضطهاد ، وإن بشر بن قيس

---

(١) الأغاني (١٨ : ١٨٢) .
(٢) نفسه (١٨ : ١٨٢) .

الشـــيباني قـــد حذر أخاه من أن يموت أسيره في يديه هزلاً فسبه به العرب "[1]" .

وقـــد حـــدث أن أضـــرب عن الطعام ذات يوم ، كما يقال الآن احـــتاجا على الأسر مما دعا بسطاما إلى إطلاقه بعد أن أحلفه ألا يغزو شيبان مرة أخرى "[2]" .

ومـــن وجهـــة أخـــرى كـــان تنجنب قتل الأسرى مدعاة للفخر والتباهي فقد أفتخر رجل يسمى ابن جفنة بأن قومه ما قتلوا أسيراً قط "[3]" .

وعـــندما بزغ فجر الإسلام لم يقتل النبي صلى الله عليه وسلم الأســـرى مـــالم يكونـــوا أســـرفوا في معاداة الدين الإسلامي وإيذاء المسلمين قبل أسرهم "[4]" ، أو نقضوا عهداً وعادوا إلى الإيذاء بعد أن مـــن عـــليهم المصطفى صلى الله عليه وسلم وفك أسرهم ، أو أحدثوا قـــتلاً ، مثـــلما حـــدث من النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط"[5]" .

وكالحويرث بن نقيذ الذي كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ورمى بابنـــتيه فاطمة وأم كلثوم إلى الأرض ، وكان العباس بن عبد المطلب حمـــلهما مـــن مكة يزيد بهما المدينة "[6]" وكقيس بن صبابة الذي أسر فقـــتل قصاصـــاً لجريمة ارتكبها ، وكان أتى المدينة وأظهر الإسلام ، وطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم دية لأخيه هشام بن صبابة ،

---

(١) النقائض ص ٢٠ .
(٢) النقائض ص ٢٠ .
(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلي لأحمد محمد الحوفي ص ٢٦٦ ، دار نهضة مصر ط ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .
(٤) آثار الحرب في الفقه الإسلامي لوهبة الزحيلي ص ٤٤٠ دار الفكر دمشق ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
(٥) وقد قتلهما النبي صلى الله عليه وسلم بعد غزوة بدر لإيذائهم وكثرة هجائهما الإسلام وأهله ، انظر السير النبوية لأبن هشام (٢ : ٢٩٨) تحقيق مصطفى السقا وآخرين مكتبة البابي الحلبي سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٦٥ م .
(٦) المغازي لمحمد بن عمر الواقدي ص ٨٧٥ ط ١٩٦٦ م ونهاية الأرب للنويري (١٧ : ٣٠٩) .

وكـــان قد قتله رجل من الأنصار خطأ ، كان مع النبي صلى الله عليه وســـلم فـــي غزوة بني المصطلق ، فأمر له المصطفى صلى الله عليه وســـلم فأقـــام غير كثير ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج إلى مكـــة مـــرتداً فـــلما ظفر به النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح أمر فقـــتل"[1] ، وكذلك هبار بن الأسود لإيذائه زينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم صلي الله عليه وسلم حتى أسقطت جنينها ، على أن هباراً أسلم بعد ذلك واعتذر إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم فعفا عنه"[2].

وحينما بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ليدعوهم إلى الإسلام فقاتلهم وقتل بعض أسراهم فلما علم بذلك المصطفى صلى الله عليه وسلم استاء من خالد بن الوليد وغضب منه كـــثيراً وتوجه إلى ربه مناجياً : " اللهم إني أبرأ إليك مما نصع خالد " وأرسل على بن أبي طال بدياتهم "[3] .

بـــل إنـــه عوضـــهم عـــن كل ما فقدوه من القتال حتى(ميلغ الكلب)"[4] وقد أوصى صلى الله عليه وسلم صحابته بالأسارى خيراً "[5] ، وكـــان فعله صلى الله عليه وسلم مطابقاً لقوله في ذلك ، فإنه مثلاً ، لما جيء يملك بني حنيفة ثمامة بن أثال أسيراً ، لم يمنع النبي – عليه السلام – لما يعلمه من شدة عدائه للدعوة الإسلامية وإيذائه المسلمين مـــن أن يأمـــر بالإحسان إليه في الأسر ، وإكرامه ، بل إنه من عليه بغيـــر فـــداء ، مما كـــــان لـــه أثر عظيم الوقع في وجدانه ، فأسلم

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٤٠٨ ونهاية الأرب للنويري (١٧ : ٣٠٩) .
(٢) السيرة ص ٣٠٩ ، ٣١٢ ، والمغازي ص ٨٥٨ والتي بعدها .
(٣) المغازي ٨٨١ ، ونهاية الأرب للنويري ص ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢١ .
(٤) أنظر نهاية الأرب للنويري (٧ : ٣٢١) والتي بعدها .
(٥) أنظر السيرة ج ٤ ص ٢٢٩ والمغازي ص ١١٩ ، ونهاية الأرب (١٧ : ٥٤) .

وأمســـى من أنصار الدين الإسلامي المخلصين بعد أن كان عدواً لدوداً للإسلام وأهله "[1]" .

كمـــا أن صحابته رضوان الله عليهم أجمعين نفذوا وصاياه ، فمثلاً لما أســـر جماعة من الأنصار (أبا عزيز) عمر بن هاشم أخا مصعب بن عمير في غزوة بدر ، كانوا يخصونه بالخبز إذا قدموا الطعام ويأكلون التمر ، وكانت إذا وقعت في يد أحدهم قطعة خبز نفح بها عميرا حتى أنـــه كان يستحي فيعطي لأحدهم فيعطيها إياه مرة أخرى "[2]" وفي ذلك يقـــول جـــل شـــأنه : (ويطعمـــون الطعـــام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا)"[3]" .

أما التمثيل بالأسرى ، وإن كان قليلاً فإنه محرم شأنهم في ذلك شأن غيرهم ، وحينما أشار عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – النبي صـــلى الله عـــليه وســـلم بنزع ثنيتي سهيل بن عمرو عندما أسر في غزوة بدر حتى لا يخطب ضد المسلمين لم يقبل منه ذلك "[4]" .

ولـــم يؤثـــر عـــن المصـــطفى صلى الله عليه وسلم أنه حبس الأسرى في أماكن ضيقة أو حفر عميقة بل كان يحبسهم في البيوت ، كما فعل مع أحد عشر أسيرا من بني تميم جلبهم إلى المدينة عيينة بن حصن الفرازي لما عاد بسرية بعثه بها الرسول صلى الله عليه وسلم إذ حبســـهم فـــي دار رملة بنت الحارس "[5]" ، وربما ربط الأسير بأحد أعمدة المسجد كما فعل بثمامة بن أثال "[6]" .

---

(١) نفس المصدر السابق السيرة (٤ : ٢٨٧) والتي بعدها .
(٢) السيرة (٢ : ٣٠٠) .
(٣) الأية ٨ من سورة الإنسان .
(٤) انظر السيرة ص ٣٠٤ والمغازي ص ١٠٧ .
(٥) المغازي ص ٩٧٥ .
(٦) انظر صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري (٢ : ٨٥٣) الحديثان رقم (٢٢٩٠ ، ٢٢٩١) ط دار ابن كثير دمشق ط ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

وإذا كـــان الصحابة قد ساروا ، كما أشرنا على هدى الرسول صـــلى الله عـــليه وسلم ، في معاملة الأسرى فإن لكل قاعدة شواذ ، فـــربما جـــرت من أفراد يعدون على الأصابع بعض التجاوزات غير المسموح بها ، كما حدث من جميل بن معمر الجمحي عندما قتل زهير ابن العجوة وهو مربوط مع أسرى حنين الذين أخذهم أصحاب الرسول صـــلى الله عـــليه وسلم ، لأنه كان بينهما إحنة في الجاهلية فسبه أبو خراش الهذلي بهذا الفعل المنكر ، وعيره بأنه إنما تمكن من قتله لأنه وجـــده مـــربوطاً وأقسم أن لو وجده طليقاً فنازله منازلة الند للند لما تمكن من قتله ، بل لكان وهو يشير بذلك إلى العرف السائد من أن قتل الأسير ومن في حكمه عار يجلب لصاحبه الذم والهوان لعجزه عن كف الأذى عن نفسه ويقول "[1]" :

فـــو الله لـــو لاقيـــته غيـــر موثق

لآبـــك بـــالجوع الظـــباء الـــنواهل

وإنـــك لـــو واجهـــته إذ لقيـــته

فنازلـــته لـــو كـــنت ممـــن يـــنازل

لظـــل جميـــل أســـوأ القـــوم تـــلة

ولكـــن قـــرن الظهـــر للمرء شاغل

ولقـــد تغيـــر الحـــال وتبدل شيئاً ما ، تجاه الأسير فيما تلا من عصـــور حين وهت قوى تعاليم الدين الحنيف في أنفس بعض القادة ، فعـــلى ســـبيل المـــثال وجدنا سليمان بن عبد الملك يقتل أربعمائة من أسرى الروم ، أن صح ذلك الخبر حيث يطلب من الوجوه أن يقتل كل

---

(١) انظر شرح أشعار الهذليين ص ١٢٢٢ ،، آبك : وجدك أي لكنك ثاوياقتيلا بالجزع تمر الظباء بك ولا تخشى تعرضك لها لأنك ميت ، والجزع : منعطف الوادي ، النواهي : التي في طريقها لترد المنهل ، قرن الظهر : قرن اليدين إلى الظهر أي كان في تكتيفه ما يشغله ويحول بينه وبين مقاتلتك .

منهم أسيراً ، وقيل إنه قد طلب من الفرزدق ذلك فدس إليه بنو عبس سيفاً كليلاً فضرب به الأسير ضربات ، فلم يصنع شيئاً فقال شعراً منه"[1]".

فلا نقتل الأسرى ولكن نفكهم

إذ أثقل الأعناق حمل المغرم

(١) انظر النقائض ص ٣٨٣ والتي بعدها ديوان الفرزدق ص ١٥٧ ، وانظر عن حكم قتل الأسرى عند مختلف المذاهب الإسلامية آثار الحرب في الفقه الإسلامي ص ٤١٨ ، ٤٤١ .

المبحث الرابع

فك الأسرى

إن الشعراء القدامى قد تطرقوا كثيراً إلى فك الأسرى أو المن عليهم لأن ذلك مفخرة لأنفسهم ولقومهم ، وممدوحة يضعونها لممدوحيهم ويخلعونها عن مهجويهم وأعدائهم ، بل هو يعد من أخطر القيم الخلقية والمثل الإجتماعية عند العربي ، وهو فعل جليل لا يصنعه إلا الكريم ، ولذلك قد حث الإسلام عليه ودعا المسلمون إلى فعله مشجعاً له بمختلف الوسائل على تحريم الأسير من نير الأسر ، وما قد يصحبه من معاناة ويقول عز وجل : (فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة) "[1]".

إن فك العاني من أسمى المكرمات ، لأن الكرام وأصحاب القلوب الرحيمة هم الذين يحملون تبعة عون المتألّمين على التخلص مما يؤلمهم ، لأن المعاناة الإنسانية تحرك عواطفهم فترفض مروءاتهم إلا الوقوف مع هؤلاء المعانين والمستضعفين في الأرض ومن هؤلاء الكرام عربي عاش قبل الإسلام بين عمارة العوذى العبسي نذر نفسه لفك الأسرى وأحلف بالله لا يسمع صوت أسير بليل إلا فكه ووهب له نفسه"[2]" ، ولذلك سمى عمارة الوهاب "[3]" .

وكان حاتم إذا أسر أطلق .. وقد أقسم بالله لا يقتل واحد أمه وهو القائل :

---

(١) سورة البلد الآيات (١١ ، ١٢ ، ١٣) .
(٢) نشوة الطرب ص ٥٣٣ .
(٣) المستقصى ص ٥٣ .

أمـــاوي إنـــي رب واحـــد أمـــه

أخـذت فـلا قـتل عـليه ولا أسر

ونـــاداه وهو خارج يوماً في أرض عنزة ، أسير مستنجداً به : " يـــا أبـــا سفانة أكلني الإسار والقمل " فساوم آسريه على فديته ، ثم مضى وأتى بها وأطلقه .

فلا عجب إذن أن كاد حديث الشعراء عن فك الأسرى يعدل كل مـــا ســـواه من القول فيماله صله بالأسر ، ولا عجب أيضاً إن وجدنا الشـــاعر الواحد يكرر القول فيه مادحاً أو راثياً أو مفتخراً كما فعل كل من الأعشى والخنساء .

الفخر بفك الأسرى :

إن معظم الشعراء الجاهليين يفتخرون بفك الأغلال والقيود عن الأســـرى وإطلاق صراحهم فيستمر الواحد منهم يفدي الشاعر بنفسه وبأعز من يحب : ومن ذلك يقول أمرؤ القيس"[1]" :

فيـــا رب مكـــروب كـــررت وراءه

وعـــان فككـــت الغـــل عـــنه فقداني

كمـــا يفـــتخرون بفك الأسير من غير فداء فيصير حراً طليقاً فرحاً بين الناس : ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة العامري "[2]" :

---

(١) ديوان أمرئ القيس بن حجر الكندي ص ٩٠ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار المعارف القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٨٥ م .

(٢) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ص ٢٥١ تحقيق إحسان عباس ، - وزارة تالأعلام الكويت طبعة ثانية مصورة سنة ١٩٨٤ م السوام بالفتح السائمة أي الماشية والسوام مصدر من المساومة .

وعـــــان فككـــــناه ســـــوامه

فأصـــبح يمشـــي فـــي المحلة جاذلاً

وعـــان فككـــنا الكيـــل عانه وسدفة

ســـريت وأصحابي هديت بكوكب "[1]"

وممن كان له الباع الطولي في فك الأسرى وافتخر بهذا الفعل العظيـــم الأخـــنس بن شهاب التغلبي وهو قائد تغلب وقد لقب بفارس العصـــا ، لقـــد بلغ " الأخنس قول " حمل بن بدر " منتقصاً من شأنه ، وكانت عادته الإغارة على بعض القبائل إلا أن فزارة ليست كمن يغير عـــليهم من كلب وغيرها وعجبت له إذ هو من بني معاوية بن عمرو وكيف بلغ ما بلغ ؟ فقبح الله تغلب كيف يعطون مثله مقادهم "[2]" .

فغـــزا الأخـــنس بن شهاب فزارة وقاتلهم في " الشربة " وأسر مـــنهم رجالاً فيهم فارسهم يزيد بن بدر أخو حمل ، وسبى نساء فأتاه وفـــد مـــنهم وقدموا في فداء يزيد بن بدر وحدة ألف بعير ، فرفض الأخنس وامتنع عن قبول الفداء وأظهر لهم التشدد واستخف بأمر هذا الفداء على الرغم من كثرته .

وقـــد حـــزن هـــذا الوفد على فارسهم حزناً شديداً لدرجة أنهم فاضـــت أعيـــنهم بالـــبكاء وتيقنوا أن الأخنس يقتله ، ولكن الأخنس فاجـــأهم وأذهـــلهم بإطلاق سراحه دون أخذ بعير واحد منهم بالإضافة إلى أنه قد زود يزيد بما يحتاج إليه من مال ومتاع .

ولقـــد رضـــى الأخنس عن المال الغادي والرائح بالعمل العظيم المشـــرف وهـــو فك الأسير الذي تبقى منه الأحاديث والذكر الحسن ،

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٩ .
(٢) الأنوار ص ١٩٦ .

لأنــه مــن طابت سريرته حمدت سيرته كما يقولون فآثر تقليد قومه جميلاً لن ينسوه وأخذ يقول :

ألــم تــرني منــنت عــلى يــزيد

ولــم أشــمت بــه حمــل بــد بدر

ولــو أنــي أشــاء لــبات نصــباً

يقــلب أمــره بطــنا لظهــر

ولــو أنــي أشــاء لســاق ألفــاً

كهضــب الطــود مــن سود وحمر

ولكــني حفظــت بــني أبيــه

بــنعمة فكــه لــبقاء دهــر

وقــد ســجل يــزيد بن بدر امتنانه الصادق وعرفانه بالجميل للأخــنس بشعر نابع من أعماق قلبه ونبضات حسه وخلجات نفسه قد عبر به عن صدق مشاعره وإحساسه الحقيقي بالشكر والثناء لنعمان الأخنس يقول "[1]" :

جــزى الله عــني والجــزاء بكفــه

أبــا الغمر أعنى الأخنس بن شهاب

تداركــني مــن بعــد بــؤس بنعمه

وكــنت أســيراً في جناح عقاب "[2]"

فأطلقــني مــن بعدمــا ظــن قومه

وقومــي ظــنا لــم يكــن بصــواب

وقد تمكن التغلبيون أيضاً من أسر حذيفة بن بدر أخى في يوم " خــو " وآثــر المن عليه بلا فداء . على أنه عرض أن يفدي نفسه

(١) أنظر الأنوار ص ١٧٠ ـ ١٧٣ .
(٢) في جناح عقاب كناية عن شدة القلق والضيق .

بـــألف ناقة حمراء سوداء المقلة لأنه سيد من سادات مضر فعمرو بن كلـــثوم يحب الاصطناع إليه ثم جز ناصيته ، وأطلق سراحه ، وأعاده إلى قومـــه مصماً أذنيه عن دعوة التغلبيين إلى جز رأسه . وله فخر بهـــذا الصـــنيع العظيـــم ، كما مدحه حذيفة مظهراً عرفانه بإحسانه ، ومؤكداً أنه طوقه بعرف كريم سيظل شاكراً له ما دام حياً "[1]" .

والكـــريم له معاد كما يقول . فلم تلك هذه بالمرة الوحيدة التي يطـــلق فيها عمرو بن كلثوم أسيراً بلا فداء ، بل قد أطلق سراح رجل أسره في يوم آخر من غير أن يكلفه شيئاً ، على الرغم من أن الرجل بذله له من الإبل ما شاء ومدحه ولم يكتف بإطلاق سراحه ، بل زوده براحلة وزاد مثلما فعل الأخنس بيزيد فمضى إلى أهله "[2]" .

وهـــناك مـــن الشعراء الأقدمين من افتخر بأن هدفه من كسب المـــال ليـــس إلا مـــن أجـــل شيئين أحدهما : إكرام ضعيف يحل به ، وثانيهمـــا : فـــداء أسير بالسلاسل والقيود ، وبأنه من أناس سادة ، شيمتهم فك أغلال الأسرى : وهو دريد بن الصمة إذ يقول :

ومـــا إن كســـبت المـــال إلا لبذلـــه

لطـــارق ليـــل أو لعـــان مكـــبل "[3]"

ونحـــن معاشـــر خـــرجت مـــلوكاً

تفـــك عـــن المكبـــلة الكـــبولا "[4]"

وكذلك من الشعراء القدامى من افتخر بأن قومه يفكون الأسرى بعد أن تكون السلاسل قد أكلت أيديهم ومنهم من افتخر بكثرة أسراهم

---

(١) أنظر الأنوار ، ص ١٥٧ ـ ١٥٩ .
(٢) الأنوار ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .
(٣) انظر ديوان دريد بن الصمة الجشمي ص ٩٦٥ تحقيق محمد البقاى ط دار قتيبة دمشق ١٤٠٤ هـ ١٩٨١م
(٤) نفس المصدر السابق ص ١٠١ .

وإطـــلاق قومـــه ســـراحهم بـــدون فداء ومن غير جز ناصيتهم على كرامتهم وعدم إذلالهم كما يفعل كثيرون بمن يمنون عليهم : وفي ذلك يقول تميم بن مقبل "[1]" .

مصـــاليت فكـــاكون للســـبى بعدما

تعـــض عـــلى أيدي السبي سلاسله

ويقول كعب بن مالك الأنصاري "[2]" :

كـــم مـــن أســـير فككـــناه بلا ثمن

وجـــز ناصـــية كـــنّا مواليهـــا

بيـــنما نجد حسان بن ثابت قد مجد أبيه وآله في فك الأسرى ، وصـــور تصـــويراً مثيراً حال الأسير المحتاج للمساعدة وقد ناشد بني الـــنجار ابن ثعلبة ، وهم قومه من الخزرج ألا يغفلوا عما كان يصنع أبوه إذا ضاق الأسير ذرعاً بنفسه ، حين لا يجد من سيسعى لتخليصه من أسره ، أو ملاطفته وإيناسه ، حين يغفل عنه قومه فلا يرى منهم رجـــلاً وفياً يفد إليه ليخفف عنه فادح بليته ، فسدت في وجهه سبيل الحرية ، وزيد تكبيلاً وإيثاقاً حتى جفت يداه وتشققت أنامله ، فكان إذا ذكر قومه المقيمين حيث هم غير مهتمين به وبمعاناته ساح الدمع مع مقلتيه غزيراً ألسنا نقصده على متون مطايانا ، فلا ندعه حتى نفتديه بمالنا ونحرره من قيوده ؟ ويقول "[3]" :

---

(١) انظر ديوان تميم بن مقبل ص ٢٤٢ تحقيق عزة حسن وزارة الثقافة دمشق سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢م.

(٢) ديوان كعب بن مالك الأنصاري ص ٢٩٢ تحقيق سامي مكي بغداد مكتبة المعارف بغداد عام ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م.

(٣) ديوان حسان بن ثابت ص ٧١ .

نشـــدت بـــني الـــنجار أفعال والدي

إذا لم يجدعـــان لـــه من يوازعـــه

وراث عـــليه الوافـــدون فمـــا يرى

عـــلى الـــنأي منهم ذا حفاظ يطالعه

وســـد عـــليه كـــل أمـــر يـــريده

وزيـــد وثاقـــا فاقفعـــلت أصـــابعه

إذا ذكـــر الحـــي المقيـــم حـــلولهم

وأبصـــر مـــا يلقي استهلت مدامعه

ألســـنا ننص العيس فيه على الوجا

إذا نـــام مـــولاه ولـــذت مضـــاجعه

ولا ننـــتهي حـــتى نفـــك كـــبولـــه

بأموالـــنا ، والخيـــر يحمـــد صانعه

ولقـــد كـــان فـــك الأسرى وإطلاق سراحهم من صفات الأجواد النـــبلاء فقد عرف عن صعصعة بن ناجية الدرامي جد الفرزدق وهو معـــدود من أجواد"[1]" العرب حيث كان يشتري البنات اللاتي كن سؤدن ويـــنقذهن"[2]" ، كما عرف المبادرة إلى فك الأسرى ، وقد أكثر ابن ابنه الفـــرزدق من عزو هذا الضرب من العمل الإنساني في الخير إليه في فخره الكثير به فيقول"[3]":

---

(١) أنظر المحبر لمحمد بن حبيب نسخة مصورة بيروت ص ١٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤١ والكامل في اللغة العربية للمبرد (٢ : ٨٤ ، ٨٥) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار نهضة مصر القاهرة سنة ١٩٨١ م .

(٣) ديوان الفرزدق (٢ : ٣٧٩ ، ٣٥٩) ،

أنـــا ابـــن عقـــال وابن ليلى وغالب

وفكـــــاك الأســـــير المكفـــــر "١"

غـــلام أبـــوه المســـتجار بقـــبرة

وصعصـــعة الفكـــاك من كان عانياً

المـــدح بفـك الأســـرى :

لقد أكثر الشعراء من الفخر بفك الأسرى كما أكثروا من إسناده إلى ممدوحيهـــم فقد مدح أوس بن حجر حاتماً الطائي بأنه مكث طوال حياتـــه موجها جل همه إلى شيئين : أحدهما : فك الأسرى وثانيهما : مســـاعدة الغارمين . وقد كرر زهير بن أبى سلمى مدح هرم بن سنان بفك الأسرى ، كما مدح تأبط شرا أسد بن كرز سيد بجيلة بذلك ويقول أوس بن حجر :

فـــتى لا يـــزال الدهـــر أكبر همه

فكـــاك أســـير أو معونة غارم "٢"

ويقول زهير بن أبي سلمى "٣"

أغـــر أبيـــض فيـــاض يفـــك عـــن

أيـــدي العـــناة وعـــن أعناقها الربقا

ويقول أيضاً "٤" :

أليـــس بضـــراب الكمـــاة بســـيفه

وفكـــاك أغـــلال الأســـير المقيـــد

---

(١) عقال : عقال بن محمد سفيان المجاشعي أحد أجداد الفرزدق .
(٢) ديوان أوس بن حجر ص ١٢٥ تحقيق محمد يوسف نجم دار صادر بيروت سنة ١٩٦٠ .
(٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٥٢ نسخة مصورة عن دار الكتب سنة ١٣٦٣ هـ - ١٩٤٤ لأحمد بن يحيى ٩ .
(٤) نفس المصدر السابق ص ٢٣٢ .

كما يقول تأبط شراً "[1]"

وجـــدت ابـــن كـــرز تســـتهل يمينه

ويطـــلق أغـــلال الأســـى المكـــبل

ولقد عدد الأعشى خصال الملك اللخمي الأسود بن المنذر أخى النعمان بن المنذر فجعل فك الأسرى ضمن مناقبه وشيمه "[2]" .

كمـــا أثـــنى الأعشـــى على ملك بنى حنيفة " هوذة بن على " لشفاعته الكريمة عند كسرى لفك أسر عدد كبير من التّميميين أسرهم يـــوم الصـــفقة "[3]" لأخذهم لطائمه وهي الإبل التي تحمل المسك في " يظـــاع " تلك الشفاعة التي لولاها لمكث التميميون في سجنهم الشاهق المظلم لا يملكون لأنفسهم فيه ضراً ولا نفعاً"[4]" .

ولقـــد مدح الأخطل مصقلة بن هبيرة والي طبرستان في عهد معاوية بإطلاق أسرى عنده ، وصور حالهم كما صور خوالج نفوسهم عـــند فك إسارهم تصويراً يظهر عظمة العمل الذي أقدم عليه مصقلة حيث كانوا يائسين من أن يجدوا ملجأ يفرون إليه مما هم فيه فأنقذهم مـــن قـــاع بـــئر مظلمة ، وإذا أبصر فيها جبان انخلع فؤاده فزعا من الوقـــوع لقبحها وهجرها فأخذوا يفدونه بأرواحهم ضاجين ضجة رجل واحد بالنحيب وفي ذلك يقول الأخطل "[5]" .

---

(١) ديوان تأبط شراً وأخباره ص ١٧٢ تحقيق على ذو الفقار شاكر ، دار الغرب الإسلامي بيروت سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

(٢) ديوان الأعشى ص ٩ تحقيق محمد حسين مكتبة الآداب القاهرة سنة ١٩٥٠ م .

(٣) يوم في الجاهلية كان بين الفرس وتميم .

(٤) ديوان الأعشى ص ١٠٩ ، ١١١ .

(٥) شرح ديوان الأخطل التغلبي ص ٣٥٠ ٣٥١ دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٨ دخلاً : منجأ ، زحلا : هرب

وقــد فككــت عن الأسرى وثاقهم

وليــس يــرجون تلجاء ولا دخلاً

وقــد تــنقذتهم مــن قعر مظلمة

إذ الجــبان رأى أمــثالها زحــلاً

فهــم فــداؤك إذ يــبكون كــلهم

ولا يــرون لهــم جاهــا ولا نفلا

كمــا نجــد الخنساء في شعرها نسبت إلى أخيها صخر إطلاق الأســرى عــدة مرات ، فهو بالإضافة إلى خصاله الكريمة الأخر فكاك عانية "[1]" ، أو فكاك العناه"[2]" وهو الذي يهب لنجدة الأسير المتألم من سوء حاله وعونه وغوثه فتشاهده يحك ساقيه ، ويجر بأصفاده فيلبي صخر دعوته ويقطع قيوده ، وما كان قبل أن يرى صخراً يظن أنها لا تقطع على مدى الزمن وفي ذلك تقول الخسناء "[3]"

وعــان يحــك ظــنا بيــبه

إذا جــر فــي القــد لا يــرفع

دعــاك فهــتكت أغلالــه

وقــد ظــن قبــلك لا تقطــع

وكم من عان مثل هذا قد تجرح ساعداه من أثر القيود والأغلال فــك أســره صــخر وأطلق صراحه دون أن يسمع منه كلمة شكر أو اعتراف بجميل "[4]" .

---

(1) ديوان الخنساء دار صادر بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ ص ٤٩ ، ٧٥ .
(٢) نفسه ص ٨ .
(٣) نفسه ص ٩٢ .
(٤) ديوان الخنساء ص ١٤ .

وقـد تساءلت الخنساء : من مثل أخي صخر في إغاثة الأسير وخاصـة الفقير الذي قد أسر ليأثر به عمن قتل فهو يائس من الحياة فتقول "[1]"

عـلى صـخر ، وأى فـتى كصخر

لعـان عـائل غـلق بوتـر

وممـا رثى به أحد الفرسان الجاهليين أن الأسير لن يلقي بعده من يفكه من أسره ؟ فهو يبكي لفقده ، كما سيبكي الأسرى الذين كانت عـادة المـرثى فكهـم مع من يبكيه من الفرسان والأرامل التي فقدن أزواجهـن وواجهن الضياع والدمار فليس حياً ليشد أزرهن وفي ذلك تقول أم بسطام ابن قيس "[2]"

سـيبكيك عـان لـم يجد من يفكه

ويـبكيك فرسـان الوغـي ورجالها

وتـبكيك أسـرى طالمـا قد فككتهم

وأرمـلة ضـاعت وضـاع عيالهـا

ومـن يمعـن النظر ويدفق الفكر في الأبيات السابقة في حسن معاملة الأسير والمن عليه أو الشماتة بالعدو المأسور والتشفي الحاقد مـنه يجـد تناقضاً ظاهراً ، ولكن الحقيقة لا يوجد تناقض لأن العربي يجعـل لكل مقام مقال ، فتشفيه ووإبداؤه الفرح والسرور بقدرته على عدوه وخصمه شيئاً محموداً ، وفك العاني قيمة خلقية عظمى ، وربما هذا المتشفى في مقام آخر يصفح ويعفو ويطلق سراح أسيره .

---

(١) نفسه ص ١٤٥ ، العلق : الذي لم يفد

(٢) الفارسي المرثي هو بسطام بن قيس والشعر لأمه انظر الكامل (١ : ٦١٥) .

المبحث الخامس

دور الشعر في فك الأسرى

إن مـــن يمعن النظر ويقرأ في الشعر القديم يشاهد ويدرك أن للكـــلمة الفـــنية الشعرية دوراً بارزاً في فك الأسير من قيوده وأغلاله الـــذي يرسف فيها . ورب كلمة تقال في مكانها المناسب تثمر في هز أريحيـــة الآســـر ومس أوتار الإنسانية فيه فيستجيب استجابة سريعة بـــإطلاق مـــن في يديه من الأسرى ، وقد وقع ذلك لأسير عند ربيعة أبصـــرهم يشربون الخمر فجأر بصوته يمدحهم متغنياً ومستجدياً إياهم أن يمنحونه حريته فيقول "[1]"

وقـــد أدركتـــني الحـــوادث جمـــة

مخـــالب قـــوم لا ضـــعاف ولا عزل

ســـراع إلى الحلـــبي بطاء عن الخنا

رزان لـــدى الباذين في غير ما جهل

لعـــلهم أن يمطـــرون بـــنعمة

كما صاب ماء المزن في البلد المحل

وكذلـــك كـــان لبسطام بن قيس أسير من بني يربوع من تميم وســـمعه يغـــني بأبيـــات فيهـــا ويرجو منه أن يمن عليه ، فيذكر أمه وشـــفقتها عليه واعتلالها واضطراب لغيبته ، فما كان من بسطام بن قيس إلا أن آلى " ألا يخبر أمه عنه غيره وأطلق سراحه "[2]"

وذات مـــرة قـــد أسر الحارث بن أبي شمر الغساني مائة أسير عـــلى المناذرة فذهب إليه الشاعر الجاهلي علقمة بن عبدة حيث كان

---

(١) الكامل ١ : ٦٣٠ ــ ٦٣١ ، الباذي من " بذا " الرجل أي فحش وساء خلقة

(٢) نفسه (١ : ٦٠٠) .

أخوه شاساً أسير ضمن المائة وطلب من الحارث فك أسر أخيه ومدحه بقصيدته المعروفة (طحابك قلب) وقال فيها :

وفـــي كـــل حـــي قـــد خبطت بنعمة

فحـــق لشـــاش مـــن نـــداك ذنوب

فقـــال الحارث : " إي والله ؟ بل وأذنبة " ثم أطلق سراح شأس وقـــال للشـــاعر علقمة : إن شئت الحياء ، وإن شئت أسراء قومك . وقـــال لجلســـائه : " إن اخـــتار الحياء على قومه فلا خير فيه ، فقال عـــلقمة الشاعر أيها الملك ! ما كنت لأختار على قومي شيئاً " فأطلق الحارث جميع الأسرى ، وحياه وكساه وكذلك فعل مع جميع الأسرى ، بـــل زودهـــم زاداً كثيراً وعندما وصل الأسرى إلى بلادهم منحوا كلما أعطـــو لشأس قائلين له : أنت كنت السبب في إطلاق سراحنا فاستعن بهذا على دهرك "[1]" .

كذلك نجد حاتما الطائي أنشد الأمير الغساني الحارث بن عمرو الجفني شعرا طلب فيه فك أسرى عدد كبير من الطائيين الذين أسرهم فـــي غارة له عليهم لينتصر لابنه الذي قتلوه فقد أطلق بعضهم وأبقى البعض الآخر ودعاه الطعام والخمر ، فقيل له : أتشرب الخمر وقومك فـــي الأصـــفاد ؟ قم إلى الأمير الغساني واسأله إطلاق سراحهم فأنشد أمامـــه أبياتـــاً أخر يستحثه فيها على المن على من تبقى من الأسرى ففعل الأمير الغساني وأطلق سراح الباقين "[2]" .

كمـــا أن لحـــاتم الطائي شعراً آخر قاله في أسارى قومه كانوا عند بعض الملوك فلما سمع هذا الشعر وهبهم له جميعاً "[3]" .

---

(١) انظر الكامل ج ١ ص ٥٤٤ ـ ٥٤٦ .

(٢) ديوان حاتم الطائي وأخباره ص ١٨٧ ـ ١٩٣ تحقيق عادل سليمان جمال مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م .

(٣) انظر ديوان شعر حاتم الطائي ص ٢٠٩ وما بعدها .

كما حدث أن أسر صعصعة بن محمود بن عمروة بن مرثد أخاً سلامة ابـــن جـــندل الشاعر واسمه أحمر ، فبعث إليه سلامة أبياتاً شكره بها وأفاض عليه بالثناء والحمد وخيره بين أن يمدحه مقابل إطلاق سراح أخيه أو يعطيه مائة ناقة فدية فاختار صعصعة مدحه على المال وأطق سراح أحمر "[1]"

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون (٣ : ٧٠) تحقيق عبد السلام هارون مكتبة البابي الحلبي ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ ، وديوان سلامة بن جندل ص ٢٠٤ .

البحث السادس
فداء الأسرى

إن الأسر لا يخلو بالنسبة لأسراه من أن يمن عليهم ويطلق سراحهم أو يقبل الفداء فإن لبى طلبه وإلا استرقه "[1]" ، وأن مقدار الفداء غير معلوم ومحدد بل قابل للزيادة والنقص حسب مكانة الأسير الاجتماعية وحالته المالية ، وحسب حرص الآسير وسماحته ، كما يتوقف على مبدأ المساومة "[2]" ، فقد تكون فدية الأسير العادي غير ذوي المكانة لا يتعدى بضع نياق وقد تبلغ مائة ناقة ، وقد قيل : " فلان قيد مائة " و " عقال مائة " إذا كان فداؤه إن أسير مائة ناقة "[3]" . أما الفرسان فقد تصل فدية أحدهم إلى أربعمائة ناقة أو أكثر كفدية بسطام بن قيس التي ساقها إلى عتيبة بن الحارث بن شهاب لما أسره في يوم الغبيط فقد كانت فديته أربعمائة ناقة وثلاثين فرساً "[4]" .

بل قد تصل إلى ألف بعير وذلك كفدية يزيد بن بدر الفزاري الذي ساقه قومه للأخنس التغلبي فرده إلى أهله ومن عليه بلا فداء كما ذكرنا سابقاً "[5]" .

وقد تصل فدية الملك ألف بعير "[6]" .

ولقد ذكر الدكتور / أحمد الحوفي – رحمه الله – أن أكبر قيمة في فداء الأسير هي ثلاثمائة بعير ولسنا معه في هذا لأنه سرعان ما لبث أن أشار بعد ذلك إلى ما يدل على خلاف قوله "[7]" .

---

(١) انظر المفصل ص ٤٢٦ ، ٦٣١ .
(٢) نفسة ص ٦٣٢ .
(٣) نفسه ص ٦٣٢ .
(٤) النقائض ص ٣١٦ .
(٥) الأنوار ومحاسن الأشعار ص ١٧٠ – وقيل : إن فداء بسطام بن قيس الذي دفعه لعتيبة بن الحارث كان ألف بغير وثلاثين انظر الكامل (١ : ٦٠) .
(٦) انظر : نهاية الأرب للنويري (١٥ : ٣٧٧)
(٧) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص ٢٧٠ .

ورب فقيـــر مدقع ابتسم له الحظ بأسره سيداً أو ملكاً كما حدث مـــع يـــزيد بـــن الصعق العامري إذ أسر حسان وبرة أخا النعمان بن المـــنذر لأمـــه فقدى نفسه بفداء الملوك "[1]" ولهذا فإن أسر الأشراف وأغـــنياء القـــوم أمل يهدف إليه كثيرون لأنه يدر مالاً كثيراً وقد عبر يزيد بن الصعق عن حرصه على أسر السادة والفرسان لغلاء فدائهم .

أســـارو بيض الدار عين وأبتغى
عقـــال المئين في الصباح وفي الدهر"[2]"

أراد كمـــا قال ليبن قتيبة أنه يأخذ برؤوس الفرسان ويأسرهم بطلب المئات من الأبل التي هي فداؤهم .

فيظهـــر أن الرغبة في العوض المالي أقوى دافع للأسر ، كما أن لـــلمال دوراً إذا بـــال في مصير الأسير ، إذ ربما آسره في فدائه ، وإن كـــان قد وتر قومه من قبل "[3]" كفعل عتيبة بن الحارث بن شهاب اليـــربوعي لما أسر بسطام بن قيس وأشار عليه قومه بقتله لأنه كان قتل منهم ثلاثة ، فأحتج عتيبة بفقره وأنه يحب اللين .

أراد أنه يريد الإبل الفدية ليشرب من لبنها ، ولم يصغ لتحذير قومـــه من أن بسطاما ، إن نجا فسرعان ما يرجع إليهم غازياً فيذهب بمالهم وما ساق لعتيبة من فداء ، وأطلق سراحه مقابل أربعمائة بعير ، أو ألـــف وثلاثيـــن فرســـاً وهودج أمه وما أسرعه ما صدقت نبوءة القـــوم فقد أغار بسطام بعد إطلاق سراحه بأيام قلائل على إبل عتيبة واستاقها كما استاق كثيراً غيرها "[4]" .

---

(١) انظر نهاية الأرب "(١٥ : ٣٧٧ .
(٢) المعاني الكبير لابن قتيبة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ص ١٠٢٧ ط سنة ١٣٦٨ هـ ، الدهم : العدد الكبير من الرجال .
(٣) نفسه ص ١٠٢٧ ،
(٤) راجع الكامل ص ٥٩٩ وما بعدها .

وقد ضربت العرب المثل بغلاء فداء بسطام وحاجب زرارة "[1]" .

وقد يدرك الأسير الفطن الداهية مدى حرص آسريه على نيل فداء غال من قومه فيأخذ يفتل لهم في الذروة والغارب ويمنيهم أماني جميلة ويعدهم إياهم بالكثير من النوق والأغنام إلى أن يسكنوا ويتراخوا عن شد وثاقة حتى تسنح له الفرصة فيفر من رقبتهم ويتركهم يعلكون عليه الأرم "[2]"

ولما بزغ فجر الإسلام أقر ما ساد قبله من فداء الأسرى بمال ، أو مفاداتهم بأسرى لدى أقوامهم ، أو المن عليهم بغير فداء "[3]" ، وبعد غزوة بدر فدى العباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه بمائة أوقية من الذهب كما فدى كلا من ابنى أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب بأربعين أوقية أخرى "[4]" ، وقيل بل فدى نوفل نفسه بألف رمح كانت بجدة وكان أنكر أنه يملك مالاً فطلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفتدي نفسه بتلك الرماح ، فذهل لأنه ليس أحداً يعلم بأن له رماحاً بجدة وأسلم "[5]" وفدى المطلب بن أبي وداعة أباه بأربعة آلاف درهم "[6]" ، وكان هذا المبلغ هو فداء المشركين من أسرى بدر"[7]" .

وحينما أسرت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار كاتبها الرجلان اللذان وقعت في سهمهما ، وهما ثابت بن قيس بن شماس

---

(١) مثل قيس بن العيزارة الهذلي الذي أسر وأزمع أسروه على قتله لهجاته إياهم ، فخدعهم بوعود براقة خادعة حتى سنحت له الفرصة لينجو بنفسه وقد صور خداعه لهم تصويراً دقيقاً فيه سخرية لاذعة حيث وازن بينهم وبين بقر حلج لا قرون لها استطابت مرعى خصيباً فسكنت ترعاه ، انظر الأبيات في شرح أشعار الهذليين ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠ .

(٢) الدرة الفاخرة (١ : ٣١٥) . تحقيق عبد المجيد قطماش ط دار المعارف سنة ١٩٦٦ م وهي لحمزة الأصفهاني .

(٣) انظر حول شيوع هذه الخيارات الثلاثة قبل الإسلام في المفصل للزمخشري ص ٦٣١ وما بعدها .

(٤) انظر نهاية الأرب للنويري (١٧ : ٥٥) .

(٥) نفسه ص ٥٦ .

(٦) نفسه ص ٥٦

(٧) السيرة النبوية لابن هشام ص ٣٠٦ .

وابن عم له على تسع أواق من ذهب فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابها فأدى عنها وتزوجها "[1]" .

وقد يفادي الأسير بأسير عند العدو ، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل أمراة فزارية أسرها المسلمون إلى أهل مكة ففدى بها أسرى من المسلمين كانوا لديهم "[2]"

أما الأسير الذي كان لا يملك مالاً فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يمن عليه ويطلقه بلا فداء "[3]" ، فمثلاً بعد غزوة بدر فك النبي عليه الصلاة والسلام عن السائب بن عبيد وعبيد بن عمرو بن علقمة بغير فدية وكان لا مال لهما "[4]" .

أما في غزوة بني المصطلق فكان من السبي من منّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم بغير فداء ومنهم من أفدي ، حتى لم تبقى منهم أمرأة إلا رجعت إلى قومها "[5]" ، وقد يطلب من مثل هؤلاء أن يكاتب الأسير على عمل يؤديه يكون عوضاً عن فدائه ، كما جرى مع أسرى قريش بعد غزوة بدر إذ طلب من الأسير أن يعلم عشرة من صبية المدينة الكتابة فإذا أجادوها كان ذلك فداءه ، وكان أهل مكة يكتبون "[6]" .

ويعد افتداء الرجل أسيراً من قومه مفخرة للمفتدي ، ومن الرجال من يبذل الغالي والنفيس من أجل أن يحرر أسرى قومه وخاصة إذا كانوا من سراتهم وقد حدث أن استزهد ضرار بن فضالة الأسدي ما قدمه من تواجد كثرة عددهم فدية أسير يسمى " حضرمي

---

(١) المغازي ص ٤١١ .
(٢) صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج (٢ : ٦٧، ٦٨) بشرح يحيى بن شرف النووي المطبعة البصرية ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م .
(٣) السيرة النبوية ص ٣٠٦ .
(٤) المغازي ص ١٣٨ تحقيق مارسدن جونز إكسفورد لندن سنة ١٩٦٦ م .
(٥) أنظر المغازي ص ١٣٨ .
(٦) نهاية الأرب (١٧ : ٥٦)

ابــن عامــر " ففند زعم آسريه بعد قبضهم الفداء بأنهم غبنوه مؤكداً أنهــم لــم يعدوا أن نالوا عددا قليلاً من النوق بينما تمكن ضرار من إطلاق سيد كريم بذلك وشتان بين الأمرين .

وقــالوا : غبــناكم فقلت : كذبتم

ذهبــتم بــأذواد وأطلقت سيدا "[1]"

وإن المقصرين في فداء اسراهم يجعلون أنفسهم عرضة للوم والتــثريب ، وإن بلغ تقصيرهم أذني شاعر على غير وئام معهم فلن يكون غير سعيد بتقريعهم عليه ، وإنتقاصهم بسببه .

وقد عبر جرير دارم بعدم فدائهم سيدهم " معبد بن زرارة " بعد أن عجــزوا عــن الدفــع عــنه وإتهامهم بأنهم طلبوا منه الكف عن الإســتنجاد بهــم ، فلن يجد فيهم منجداً ، وأن يسلم نفسه ليد القدر ، حــتى أدمت القيود جوارحه واشتد هزاله وضعفه ، ولا عجب في ذلك فهــذا دأبهــم في التخلي عن بني قومهم وتركهم يعانون ألام القيد في الأسر : وفي ذلك يقول جرير .

قلــتم بــبرقة رحــرحان لمعــبد

لا تدعــــنا وتــــربص المقــــدار

تــرك الكــبول جوالــبا في معبد

والمــخ في قصب القوائم رارا"[2]"

تركــتم أبا القعقاع في الغل معبدا

وأي أخ لم تسملوا للأداهم "[3]"

---

(١) الوحشيات ص ١٣ .

(٢) ديوان جرير ص ٥٣٣ ، المقدار : القدر ، جوانب : قروح جافة ، ورارا : مخ رقيق

(٣) ديوان جرير ص ١٠٠٦ ، الأداهم كناية عن القيود .

وإذا أطـلق الأسـر أسيره بلا فداء فقد يجز ناصيته وهو شعر مقدم رأسه ، وذلك عرف من أعراف العرب "[1]" ففي يوم" شعب جبلة " وكـان لعامر وعبس علي ذبيان ، جزت ناصيتا كل من سنان بن أبي حارثـة وعمرو بن عمر بن عدس "[2]" وكذلك في يوم " الوقيط " أسر ضـرار بـن القعقاع بن زرارة فتنازع في أسره رجلان فجزّا ناصيتاه وأطلقاه "[3]" .

وقـد حدث أن أسر زيد الخيل الحارث بن ظالم المري وأمرأته ثـم من عليهما ، وذكر تضرع الحارث إليه وإلى قومه بأن يقبلوا منه الفدية ويطلقوا صراحه وصوره خاضعاً قانعاً بأن يجزوا ناصيته يقول: يقول : اقبلوا مني الفداء وأنعموا

علي وجزوني مكان القوادم "[4]"

ولقـد كـان جـز ناصـية الأسير علامة على القدرة والغلبة والانتصار ، فلا عجب أن يتباهى به الشاعر ناطقاً بلسان قومه رامزاً إلى تمكـنهم مـن عدوهـم وإذلالهـم لهم ، وعلو يدهم عليهم فمثلاً الخنساء تجأر بالفخر والتباهي بأسر قومها الفرسان والمن عليهم بعد جز نواصيهم فتقول "[5]" .

---

(١) ديوان الخطيئة ص ٢٩٣ تحقيق نعمان أمين طه الحلبي القاهرة ١٩٨٥ م .
(٢) نهاية الأرب (١٥ : ٣٥٢) .
(٣) نفس المصدر السابق (١٥ : ٣٥٢) .
(٤) الأغاني (١٧: ٢٦١) .
(٥) ديوان الخنساء ص ٢٧٦٥ وما بعدها تحقيق أنور عليان أبو سويلم دار عمار سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .

وخيـــل تكـــدس بـــالدار عيـــــ

ن وتحـــت العجاجة يجمزن جمزا

جـــززنا نواصـــــي فرســـــانها

وكـــانوا يطـــنون أن لا يجـــزا

وممـــا وصـــفت بـــه صخر من عشرات الأوصاف أنه " جزاز ناصية " "[1]" وربما كان الناصية كما قال جواد على في كتابة المفصل ، دلالة على إدراء جازها لمجزوزها بعد تمكنه من آسره ، وترفعه عن قـــبول فدية عن رجل غير ذي شأن "[2]"، ويظهر أن الرغبة في تحقير الأســـير الممنون عليه ليست دائما وراء جز شعر ناصيته ، بل مجرد إشـــهار الغلبة والنصر . بالإضافة إلى تعمق إحساس الأسير المفكوك بمنة الآسر عليه ، كان يشير إلى ذلك ما قاله محرز بن المكعبر الظبي عـــن أسراه ، وذلك أنه أسر رجالاً من بني ذهل بن شيبان فمن عليهم وأطلق سراحهم لكنه لم يجد منهم عرفاناً بالجميل ولذلك دعا من يأسر أحد من الشيبانين ويهم بالمن عليهم ألا يجز نواصيهم ، بل يجز لحاهم لأن جـــز النواصـــي لـــم يـــنفع فمع نمو شعرها نما ونكرانهم لفضل المعتضل.

---

(١) نفسة ص ٣٩٢ .

(٢) المفصل (٤ : ٥٩٩) .

أطـلقت مـن شيبان سبعين عانياً

فـأبو جميعـاً كـلهم ليس يشكر

إذا كـنت فـي أفناء شيبان منعماً

فجـز اللحى إن النواص تكفر "[1]"

وكـانوا ربمـا وضعوا الشعر الذي يجزونه في كنانة ليخرجوه وفخروا بأسرهم صاحبه وإطلاقهم إياه .

وفي ذلك يقول الحطيئة في مدح بغيض بن شماس :

قـد ناضـلوك فسلوا من كناتهم

مجداً تليدا ونبلا غير أنكاس "[2]"

ولكن الملوك وأولادهم بمنجى إذا أسروا من هذا الفعل المشين الحقيـر ففي " يوم طخفة " أحد أيام العرب قبل الإسلام أسر طارق بن عميـرة اليـربوعي قابوس بن النعمان بن المنذر وأخذه ليجز ناصيته فقال قابوس : إن الملوك لا تجز نواصيها ، فجهزه وأرسله إلى أبيه"[3]"

وجملة الأمر أن النماذج الشعرية التي درسناها من شعر الأسر توحي بالآتي :

أولاً : مفاخر ومحامد :

١- أسر الأعداء ، وقد سبق أن أشرنا إليه في سياق كل من الفخر والمديح .

٢- الإحسـان إلى الأسرى ، وهو مفخرة كبرى تتكرر الإشادة بها ويعظم الثناء على من يفعلها .

٣- فك الأسرى .

---

(١) النقائض ص ٢٣٦ .

(٢) ديوان الحطيئة ص ٢٨٤ ويقول شارح الديوان : إن لمجد التليد في البيت هو نواحي الفرسان التي كان يمن عليهم انظر ديوان الحطيئة ص ٢٩٢ .

(٣) نهاية الأرب للنويري (١٥ : ٤١٣)

ثانياً : معايب وموجبات ذم وانتقاص :

١- الوقــوع في الأسر ، ويعد ذلك مذمة يرمي بها الخصم ويعير لما تومئ إليه من جبن أو خور .

٢- إساءة معاملة الأسرى .

٣- عدم القدرة على أسر العدو .

ثالثا : ممارسات ذات صلة بالأسر :

١- إساءة معاملة الأسير حسياً ومعنوياً .

٢- تصفيد الأسير بالسلاسل والأغلال .

٣- فشو التشفي من العدو الواقع في الأسر والتلذذ بمحنته .

٤- قــتل الأســرى وذلك قبل مجيء الإسلام وفي سنيه الأولى ثم اقتصــرت ممارسته على شديدى الإيذاء للنبي صلى الله عليه وســلم والمســلمين ومن عفا عنهم لجرم ارتكبوه ، ثم خاسو بالعهد وعادوا إلى الإيذاء .

٥- جز ناصية الأسير ، وكان الملوك يستثنوا من ذلك .

٦- فــداء الأســرى أو المفاداة بهم بأسرى لدى أقوامهم أو المن عليهم بغير فداء .

إعـــداد

دكتور / كمال محمد محمد عبد الرحمن مخلوف

الأستــاذ المساعــد

بكلية الـدراسات الإسلامية والعربية

للبنين في قنا

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم كتاب الله تعالى .

٢- آثـــار الحـــرب في الفقة الإسلامي لوهبة الزحيلي ط دار الفكر دمشق ١٤٠٣ هـــ .

٣- الاختيار للأخفش الصغير تحقيق فخر الدين قباوة مجمع اللغة العربية دمشق ط سنة ١٣٩٤ هـــ - ١٩٧٤ .

٤- الأغـــاني لأبـــي الفرج الأصفهاني مصور عن طبعة دار الكتب القاهرة .

٥- الأنـــوار ومحاسن الأشعار لعلي ين محمد الشمشاطي ط سنة ١٩٧٧ م .

٦- البيان والتبيين لعمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي القاهرة ط سنة ١٩٧٥ .

٧- الحماســـة البصـــرية لعلي بن أبي الفرج تحقيق مختار الدين أحمد دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ط سنة ١٩٦٤ م .

٨- الحياة العربية من الشعر الجاهلي د / محمد أحمد الحوفي دار نهضة مصر ط ١٣٨٢ هـــ ١٩٦٢ م .

٩- الحيـــوان لـــلجاحظ تحقيـــق عبد السلام هارون مكتبة البابي القاهرة ١٣٥٦ هـــ - ١٩٣٨ م .

١٠- الاخـــتيار للأخفش الصغير تحقيق فخر الدين قباوة مجمع اللغة العربية دمشق ط سنة ١٣٩٤ هـــ - ١٩٧٤ م .

١١- الدرة الفاخرة لحمزة الأصفهاني تحقيق عبد المجيد قطامش ط دار المعارف القاهرة ط سنة ١٩٦٦ م .

١٢- ديـــوان أوس بـــن حجـــر تحقيق محمد يوسف نجم دار صادر بيروت ط سنة ١٩٦٠ م .
١٣- ديـــوان الأفوه الأودى صنعة عبد العزيز الميمني لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ م .
١٤- ديـــوان أعشى همدان وأخباره تحقيق حسن أبي ياسين ط دار العلوم الرياض سنة ١٤٠٣ هـــ ١٩٨٣ م .
١٥- ديـــوان تـــأبط شـــرا وأخباره تحقيق على ذو الفقار شاكر دار الإسلامي بيروت ط سنة ١٤٠٤ هـــ ١٩٨٤ م .
١٦- ديـــوان تميم بن مقبل تحقيق عزة حسن وزارة الثقافة دمشق سنة ١٣٨١ هـــ - ١٩٦٢ م .
١٧- ديـــوان جرير تحقيق نعمان أمين طه ، ط دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٦ م .
١٨- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري تحقيق وليد عرفات دار صادر بيروت ط ١٩٧١ م .
١٩- ديـــوان حاتم الطائي وأخباره تحقيق عادل سليمان جمال مكتبة وهبة القاهرة ط ١٣٩٥ هـــ - ١٩٧٥ م .
٢٠- ديـــوان الحطيئة تحقيق نعمان أمين طه مطبعة الحلبي القاهرة ١٩٥٨ م .
٢١- ديـــوان الخنســـاء دار صـــادر بيـــروت ط سنة ١٣٩٨ هـــ - ١٩٧٨ م .
٢٢- ديـــوان دريد بن الصمة الجشمي تحقيق محمد البقاعي ط دار قتيبة دمشق سنة ١٤٠١ هـــ - ١٩٨١ م .

٢٣- ديوان سلامة بن جندل تحقيق فخر الدين قباوة المكتبة العربية حلب ط سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٨ م .
٢٤- ديوان عامر بن الطفيل صادر بيروت ط سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
٢٥- ديوان عباس بن مرادس السلمى تحقيق يحي الجبوري وزارة الثقافة بغداد ط سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٨٦ م .
٢٦- ديوان عنترة بن شداد تحقيق محمد سعيد مولوى المكتب الإسلامي دمشق سنة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
٢٧- ديوان الفرزدق دار صادر بيروت سنة ١٣٨٥ هـ .
٢٨- ديوان كعب بن مالك الأنصاري تحقيق سامي مكي مكتبة المعارف بغداد سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
٢٩- ديوان لبيد بن ربيعة العامري تحقيق إحسان عباس وزارة الإعلام الكويت طبعة ثانية مصورة سنة ١٩٨٤ م .
٣٠- ديوان امرئ القيس بن حجر الكندي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار المعارف القاهرة ط ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .
٣١- سمط اللآلي لأبي عبيد البكري تحقيق عبد العزيز الميمني لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م .
٣٢- السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا وآخرين مكتبة البابي الحلبي ط سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .
٣٣- شرح أشعار الهذليين للحسن السكري تحقيق عبد الستار فراج القاهرة مكتبة دار العروبة ط ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م.
٣٤- شرح ديوان الأخطل التغلبي دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٨ م.

٣٥- شـــرح ديوان جرير لمحمد إسماعيل الصاوي المكتبة التجارية القاهرة ط سنة ١٩٥٣ م .
٣٦- شعراء النصرانية للويس شيخو مطبعة الآباء اليسوعيين .
٣٧- شـــعر طئ وأخبارها لوفاء فهمي السندوبي دار العلوم الرياض ١٤٠٣ هـــ - ١٩٨٣ م .
٣٨- صـــحيح مســـلم للإمام مسلم بن حجاج بشرح يحيى بن شرف النووي المطبعة البصرية ١٣٤٩ هـــ - ١٩٣٠ م .
٣٩- صـــحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري ط دار ابن كثير دمشق ط ١٤٠٧ هـــ ١٩٧٨ م .
٤٠- قصـــائد جاهلية نادرة ليحيى الجبوري مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٤٠٢ هـــ - ١٩٨٢ م .
٤١- الكامل في التاريخ لابن الأثير دار صادر بيروت ١٣٨٥ هـــ - ١٩٦٥ م .
٤٢- الكـــامل فـــي اللغة للمبرد تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار نهضة مصر القاهرة سنة ١٩٨١ م .
٤٣- كتاب المعاني الكبير لابن قتيبة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣١٨ هـــ .
٤٤- مجمـــع الأمـــثال لأحمد محمد الميداني تحقيق محيى الدين عبد الحميد مطبعة السنة المحمدية القاهرة ١٣٧٤ هـــ- ١٩٥٥ م .
٤٥- مجمـــع الـــبلاغة للحســـين بن مفضل الأصفهاني تحقيق عمر الساريسى مكتبة الأقصى ط سنة ١٤٠٦ هـــ - ١٩٨٦ م .
٤٦- المحبر لمحمد بن حبيب نسخة مصورة بيروت .

٤٧- المستقصى لمحمود بن عمر الزمخشري دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ط ١٩٦٢ م .
٤٨- معجم البلدان لياقوت الحموي .
٤٩- معجم الشعراء لمحمد بن عمر المزرباني تحقيق عبد الستار فراج مكتبة البابي الحلبي ط سنة ١٩٦٠ م .
٥٠- المغازي لمحمد بن عمر الواقدي تحقيق مارسدن جونز اكسفورد لندن ط سنة ١٩٦٦ م .
٥١- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ط دار العلم للملايين بيروت ط عام ١٩٨٠ م .
٥٢- موسوعة الشعر لمطاع صفدي وإيليا حاوي بيروت شركة خياط سنة ١٩٧٤ م .
٥٣- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب لأبن سعيد الأندلسي تحقيق نصرت عبد الرحمن مكتبة الأقصى عمان ط سنة ١٩٨٢ م.
٥٤- النقائض تحقيق أبيقان ليدن ط ١٩٩١ م .
٥٥- نهاية الأرب للنويري لأحمد بن عبد الوهاب النويري ط دار الكتب القاهرة سنة ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٩ م .
٥٦- الوحشيات لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي تحقيق عبد العزيز الميمني ط دار المعارف القاهرة سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .